الفصل الخامس
دلائـل النبـوة
مقدمة

كان الحديث في الفصول السابقة عن الإلـهيات؛ الباب الأول من الأبواب الثلاثة الرئيسة للاعتقاد: الإلـهيات، والنبوات، والمعاد[1]، وفي هذا الفصل يكون الحديث ـ إن شاء الله ـ تعالى ـ في الجوانب العقلية من النبوات، فنبين الدلائل العقلية التي جاءت في الكتاب والسنة لإثبات النبوات عمومًا، والرسالة الخاتمة على وجه الخصوص، وأن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ، ووحي من عنده.

وقد جاءت دلائل النبوة العقلية في الكتاب والسنّة كثيرة ومتنوعة ومفصلة، ربما أكثر من غيرها من أبواب الاعتقاد؛ ذلك أنها هي المستند العقلي العام لسائر مسائل الاعتقاد ودلائلها السمعية، فإذا ثبتت النبوة وجب عقلاً قبول سائر مايخبر به النبي عن الله ـ تعالى ـ واليوم الآخر وسائر الأمور الغيبية، لذلك كانت دلائل النبوة من أعظم الطرق عند السلف لمعرفة الله ـ تعالى ـ وإثبات وجوده، كما تقدم في الفصل الأول من هذا الباب[2].

ولما كانت النبوة من أصول الاعتقاد بهذه المثابة تكفل الله ـ تعالى ـ بنصب الآيات والبراهين الدالة عليها، بما لايبقى بعده عذر لأحد في تكذيبها، ويمتنع أن يرسل الله ـ تعالى ـ رسولاً لايجعلُ معه من آيات

---

(١) انظر اعتبار هذا التقسيم وصحّته في الجواب الصحيح لابن تيمية: ٦/ ٣٧٩.
(٢) انظر ص٢٩٦.

صدقه مايميزه عن الكذابين والدجاجلة، كما يمتنع ـ كما يقول الإمام ابن تيمية ـ (أن يُجعل مجردُ الخبر المحتمل للصدق والكذب دليلا له، وحجة على الناس)[1].

فكان ذكر البينات مع ذكر الإرسال في القرآن معًا، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾[2]، وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾[3]، والبينات جمع البينة، وهي الآية الواضحة، الدالة على صدق الرسول.

وقد قال النبي ﷺ فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «مامن الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر...»[4].

والآيات والدلائل التي ينصبها الله ـ تعالى ـ لتصديق أنبيائه ورسله هي شهادته الحسية العقلية لهم، لامجرد الشهادة القولية السمعية، وبهذا تعلم شهادة الله ـ تعالى ـ بصدق رسله، فتقوم بها الحجة، إذ لاتنفع الشهادة مالم تُعلم من غير طريق المدّعي.

يقول ـ عز وجل ـ: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾﴾[5]. فالحجة قائمة

---

(١) النبوات: ص٢٢١.

(٢) سورة الحديد: ٢٥.

(٣) سورة غافر: ٨٣.

(٤) صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي، (٤/١٩٠٥) حديث رقم (٤٦٩٦) و(٦٨٤٦)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ـ ﷺ ـ..، (١/١٢١) حديث رقم (١٥٢). وسيأتي الحديث بتمامه في ص٤٤٣.

(٥) سورة النساء: ١٦٥، ١٦٦.

على الخلق بمقتضى هذه الشهادة[1].

ويقول ـ تبارك وتعالى ـ: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾[2].

ويقول ـ تعالى ـ: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ[3] وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ فَلَا تَكُ فِى مِرْيَةٍ مِّنْهُ ۚ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾﴾[4]، أي: أفمن كان هذا حاله كمن لم يكن كذلك: أو: أفمن كان هذه حاله يُذم، أو يطعن فيه، أو يُعرض عن متابعته، أو يُفتن ويعذب[5].

وقد جاء في القرآن بيان إمكان الإرسال عقلاً، بل ضرورتَه واضطرار الناس إليه، وأن حاجتهم إليه أعظم من حاجتهم إلى الطعام والشراب والهواء.

فأما إمكانه، فدليله عموم أدلة قدرة الله ـ تعالى ـ على كل شيء؛ فإن دلائل الكمال والجلال شاهدة كما يقول الإمام ابن تيمية: (بأن

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٦٠/ ٤٦٥، ٤٦٦.

(٢) سورة الرعد: ٤٣. وانظر تعليق ابن تيمية على هذه الآية في الفتاوى: ١٤/ ١٩٢ ـ ١٩٥.

(٣) الضمير في ﴿مِّنْهُ﴾ عائد إلى الله ـ تعالى ـ، والشاهد هو القرآن، ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ أي: يتبّعه فيصدِّقه ويزكّيه، ويؤيده ويثبته، والذي على بينةٍ من ربه: الرسول وأتباعه إلى يوم القيامة، بدلالة قوله بعدها: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾، وانظر تفصيل القول في الآية في مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٥/ ٦٢ ـ ١٠٢، حيث أطال في بيانها بما يبهر.

(٤) سورة هود: ١٧.

(٥) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٣/ ٤٣، ومجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٥/ ٧٩.

إرسال رسول من البشر يبلغهم رسالات ربهم ويهديهم إلى صراط مستقيم أبلغ في قدرة الرب ورحمته بعباده وإحسانه إليهم وأعظم إثباتا للكمال من كون ذلك غير ممكن له، ومن امتناعه عن فعله)[1].

وقد جاء الإنكار على من تعجب من أن يرسل الله ـ تعالى ـ رسولاً إلى الناس منهم، يبشرهم وينذرهم، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾[2]، وقال كل من نوح وهود لقومه فيما حكاه الله ـ تعالى ـ: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ﴾[3]، وقال ـ تعالى ـ عن كفار قريش: ﴿وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ﴾[4].

وقد قرر الله ـ تبارك وتعالى ـ إمكان النبوة والإرسال في أول سورة أنزلها على نبيّه، حيث قال له: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾[5].

فإن لذكر التعليم هنا بعد ذكر الخلق دلالةً على إمكان النبوة؛ فإن النبوة نوع من التعليم، هذا وجه، ووجه آخر، وهو الاستدلال بقياس الأولى، يقول الإمام ابن تيمية: (فإن جعل الإنسان نّبيًا ليس بأعظم من جعل العلقة إنسانًا حيًا عالمًا ناطقا سميعا بصيرا متكلما قد علم أنواع المعارف.. والقادر على هذا التعليم كيف لايقدر على ذاك التعليم)[6].

---

(١) درء تعارض العقل والنقل: ١٠/ ٢٤، وقد جاءت كلمة (غير ممكن) (عنه ممكن) وهو خطأ.

(٢) سورة يونس: ٢.

(٣) سورة الأعراف: ٦٣، ٦٩.

(٤) سورة ص: ٤، ونحوها في سورة ق: ٢.

(٥) سورة العلق: ١ ـ ٥.

(٦) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٢٦٣، ٢٦٤، بتصرف يسير.

وتأمل كيف أنه لما كانت الآيات أول ما نزل، وكان المقام مقام إثبات النبوة، خُص التعليم بالذكر بعد الخلق، دون الهداية العامة الشاملة للإنسان والحيوان، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ۝٢ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ۝٣﴾[1]. وقوله: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ۝٥٠﴾[2]، وذلك ـ كما يقول ابن تيمية ـ: (.. أن هذا التعليم الخاص يستلزم الهُدى العام ولاينعكس، وهذا أقرب إلى إثبات النبوة، فإن النبوة نوع من التعليم)[3].

وكذلك قوله ـ تعالى ـ في آخر هذه الآيات: ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ يدل على النبوة من جهة أن جنس الإنسان فيه أنواع من النقص، فإذا كان قادرًا على تعليمه مع ذلك، كان قادرًا ـ من باب أولى ـ على تعليم الأنبياء الذين هم أكمل الناس[4].

وأما بيان ضرورة الإرسال في ذاته، فقد نبهّت إليه الآيات الدالة على أن مقتضى الحكمة التامة أن من خُلق للعبادة لايصح ولايحسن أن يُهمل، ويترك دون أمر ونهي، ودون حساب أو جزاء؛ فإن ذلك يتنافى مع الحكمة الإلـٰهية، ومع تنزه الخالق عن العبث واللهو، وإلى هذا الإشارة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ۝٣٦﴾[5]، أي: هملاً لايؤمر ولايُنهى[6]، وكذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا﴾[7]، والأمر والنهي والشرائع لابد لها من رسول مبلغ.

---

(١) سورة الأعلى: ٢، ٣.
(٢) سورة طه: ٥٠.
(٣) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٢٦٤.
(٤) انظر المرجع السابق: ١٦/ ٣٦٢.
(٥) سورة القيامة: ٣٦.
(٦) انظر القرطين لابن مطرف: ٢/ ١٩٤، ومجاز القرآن لابي عبيدة: ٢/ ٢٧٨.
(٧) سورة المؤمنون: ١١٥.

فالمسألة إذن لها اتصال مباشر بتنزيه الله ـ تعالى ـ عما ينافي حكمته، وهذا من أقوى الأدلة العقلية على إمكانها، بل ضرورتها، ولذلك جاء التأكيد التام بأن الناس لامناص لهم عن أن يُبعث إليهم رسول يُبتلون بدعوته، وتقام عليهم الحجة به، مهما كان حالهم من الشرك والإسراف، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ[1] حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ۝١﴾[2].

وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ۝٥﴾[3].

ومما يشير إلى ضرورة الإرسال، وحاجة البشر الماسّة إليه: الآيات والآثار التي تنبه إلى حالهم في فترات انقطاع الرسل عنهم، واندراس تعاليمهم، حيث يكونون في حال مزرية من الفساد العام المطبق، في التصورات وفي السلوك، في جميع النواحي الدينية والدنيوية، واطرادُ هذا في كل أمّة تندثر فيها النبوة دليل قاطع ـ دون شك ـ على افتقار العالم الشديد إلى الرسالات السماوية، وامتناع استغنائهم عنها بعقولهم.

ومن أمثلة ذلك: قوله ـ تعالى ـ في وصف العرب قبل البعثة المحمدية: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[4]، وقوله ـ تعالى ـ في ذكر أول انحراف في الناس: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ

---

(١) يقول ابن تيمية: (لفظ (منفك) يستعمل فيما يُلزم به الإنسان، ويقيد اختياره، ويُقهر عليه، إذا تخلص منه يقال: انفك منه) مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٩٤، فمعنى الآية: أنهم لم يكونوا متروكين بلا شرع ولارسالة، انظر معاني القرآن للفراء: ٣/ ٢٨١، ومجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٩٥.

(٢) سورة البينة: ١.

(٣) سورة الزخرف: ٥. ومعناها: لأجل إسرافكم نُعرض عن إنزال الذكر وإرسال الرسل؟!. انظر مجموع الفتاوى: ١٦/ ٤٩٥.

(٤) سورتي آل عمران: ١٦٤، والجمعة: ٢.

﴿وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1]، ومعنى الآية: أنهم كانوا أمة واحدة على التوحيد، ثم اختلفوا فبعث الله ـ تعالى ـ رسله ليردّوهم إلى التوحيد[2].

ومن أمثلة ذلك: ما رواه مسلم بسنده عن عياض بن حمار ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ خطب ذات يوم فقال في خطبته: «إن ربي ـ عز وجل ـ أمرني أن أعلمكم ماجهلتم مما علمني في يومي هذا: (كل مال نحلته عبادي حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فأضلتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي مالم أنزّل به سلطانا) ثم إن الله ـ عز وجل ـ نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عجميّهم وعربيّهم إلا بقايا من أهل الكتاب. . . » الحديث[3].

والكتاب والسنّة مملوآن بما يدل على ذلك لمن تأمل فيهما، بل ماتواتر من أخبار الأمم وتواريخ البشر شاهد على أن الرسالات الإلـٰهية ما عُدمت في مكان أو زمان إلا فسد أهله، ووقعوا في الضلال المبين، وما وُجدت وتوافرت إلا كان ذلك سببا لصلاح البلاد والعباد.

ومما تقدّم ذكره من بيان ضرورة الرسالات للعالمين، وحاجة الخلائق الماسة إليها، تظهر الحكمة والرحمة الإلـٰهية في تنويع دلائل النبوة، والإكثار من أفرادها، ومن وجوه الدلالات فيها، بما يناسب خطورة قدرها، ومكانتها من أصول الاعتقاد، كما هي سنة الله ـ تعالى ـ

---

(١) سورة البقرة: ٢١٣.

(٢) هذا الراجح في تفسير الآية، انظر تحقيق ذلك في دعوة التوحيد للهراس: ص٨٦ ـ ٩٧.

(٣) الصحيح، كتاب الجنّة. . .، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، (٤/ ١٧٤١) برقم: (٢٨٦٥) وانظر المسند للإمام أحمد: ٤/ ١٦٢.

في تيسير الدلائل وأسباب العلم بالشيء بقدر أهميته والحاجة إليه.

وقد اعتنى العلماء بذكر دلائل النبوة، والتنبيه على أنواعها وأقسامها، وصنفوها باعتبارات مختلفة؛ فباعتبار الزمان مثلاً هناك آيات الأنبياء قبل بعثهم، كالإرهاصات والبشارات، وآياتهم حين بعثهم، كالمعجزات الحسية، وآياتهم في حياتهم، كنصرهم وإهلاك أعدائهم، وآياتهم بعد موتهم، كنصرة أتباعهم وهلاك أعدائهم[1].

وباعتبار من ظهرت على يديه قسّم ابن الوزير دلائل النبوة المحمدية إلى حسية وعقلية، وجعل الحسية ثلاثة أنواع: معجزاته، وخَلْقه، وخُلُقه.

أما العقلية فجعلها ستة أنواع: أُميته، وغفلته قبل الرسالة، وصبره، واستجابة الخلق له، والبشارات السابقة له، وإخباره بالمغيبات[2].

ويلاحظ أنه يمكن إرجاع كثير من هذه الأنواع إلى نوع واحد، ألا وهو دلالة أحواله ـ عليه الصلاة والسلام ـ على نبوته، كما أن جعله الحسية قسيمة للعقلية يوهم مغايرتها لها، وسيأتي أنها داخلة فيها، باعتبار الحواس وسائل إدراك.

وباعتبار طبيعة الدليل ومجاله يقسم شيخ الإسلام دلائل النبوة إلى بابين: باب العلم، وباب القدرة والتأثير؛ فالأول يدخل فيه الإخبار بالمغيبات بأنواعها كما سيأتي[3]، كما يدخل فيه ماجاء في الكتب والنبوآت السابقة، من الإخبار بمبعث نبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ويدخل في ذلك أيضا أخبار الكهنة، كسطيح وشقّ[4]

---

(١) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٦/٤٠٨.

(٢) انظر إيثار الحق على الخلق: ٧٩ ـ ٨٢.

(٣) ص ٤٦١.

(٤) سطيح الكاهن، اسمه ربيع بن ربيعة بن مسعود بن عدي الأزدي، وشقّ هو ابن صعب بن يشكر بن رهم بن أفرك بن نذير بن قسر، من كهنة العرب في =

وغيرهما، وكذلك المنامات وتعبيرها، كمنام كسرى، وتعبير الموبذان[1]، فهذا كله من باب العلم؛ وأما باب القدرة والتأثير، فيدخل فيه الآيات الحسية التي أجراها الله على يد نبيه، ويُقسّم هذه أيضا إلى قسمين، فهي كما يقول ابن تيمية: (إما أن تكون في العالم العلوي أو فيما دونه، وما دونه إما بسيط وإما مركب، والبسيط إما الجو وإما الأرض، والمركب إما حيوان، وإما نبات، وإما معدن، والحيوان، إما ناطق، وإما بهيم، فالعلوي كانشقاق القمر وغيره، وأما الجو فاستسقائه واستصحائه، وأما الأرض والماء فاهتزاز الجبل تحته، وتكثير الماء في عين تبوك وغيرها، وأما المركبات فتكثيره الطعام غير مرة.. الخ)[2].

وسوف أعرض في هذا الفصل ـ إن شاء الله ـ ماتيسر لي من أنواع دلائل النبوات عمومًا، والنبوة الخاتمة خصوصًا، وذلك من خلال المباحث التالية:

١ ـ الإخبار بالمغيبات.

٢ ـ الآيات الحسية، (المعجزات).

٣ ـ دلالة النصرة والعاقبة.

٤ ـ دلالة الأحوال والصفات.

٥ ـ دلالة مضمون الرسالة.

٦ ـ إعجاز القرآن.

= جاهليتهم، ذكروا لهما خلقا عجيبًا، أدركا مولد النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ. انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم: ص٣٧٤، ٣٧٥، ٣٨٨، والأعلام للزركلي: ٣/ ١٤، ١٧٠.

(١) لفظ فارسي، معناه الفقيه، أو الحاكم، وهو كرئيس القضاة عند المسلمين. انظر تاج العروس للزبيدي: ٩/ ٤٩٣.

(٢) الفتاوى: ١١/ ٣١٥ وانظر نحو هذا في الجواب الصحيح: ٦/ ٨٠ ـ ١٥٨.

٧ ـ الرد على من زعم أن محمدا ﷺ مفترٍ أو معلم.

وقد أفردت إعجاز القرآن بمبحث خاص لأهميته، وتعلّقه بمسائل تستدعي استقلاله. أما المبحث الأخير فهو كالتتمة للفصل، وقد أفردته لشدة الاحتياج إليه في كل عصر، والله ـ تعالى ـ قد تولى إبطال تلك الفرية في كتابه الكريم، وأقام الحجج والبراهين الدامغة على ذلك.

وأود قبل الدخول في مباحث هذا الفصل أن أُنبه إلى الأمور التالية في شأن آيات الأنبياء عمومًا:

١ ـ **أن آيات الأنبياء مستلزمة لصدقهم استلزام الدليل للمدلول**، وذلك أنها أدلة وبراهين، فلها حد الدليل والبرهان، ومعنى ذلك أنه لايتصور أن توجد هذه الآيات مع انتفاء صدقهم، إذ ليس لمن يدّعي النبوة إلا حالان: إما أن يكون الله ـ تعالى ـ قد أرسله حقا فيكون صادقا فيؤيده بالآيات، أو لايكون صادقًا فلا يؤيده بها[1].

٢ ـ **أن دلائل النبوة فيها الظاهر لكل أحد، ومنها مايختص به من عرفه**، فالظاهر من دلائل النبوة كالآيات الحسيّة، كعصى موسى مثلا، والإجابة الفورية الظاهرة لدعاء النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ. والدقيقُ الخاص كالإعجاز البلاغي والتشريعي والعلمي في القرآن، لايعرفه إلا من عرف لغة العرب، ومن كان له علم بوجوه المصالح والمفاسد في التشريعات والقوانين، ومن كان من أهل العلوم التجريبية والطبية وغيرها، فهؤلاء يعرفون من ذلك مالا يدركه العامي الجاهل الذي لايكاد يعرف من القرآن إلا قراءة ألفاظه، وعلى هذا فليس ضرورة أن تكون كل آية على النبوة صالحة لكل أحد، بل يُستدل لكل واحد بما يناسبه من الآيات والدلائل، وهذا هو مقتضى الحكمة، وقد جعل الله ـ تعالى ـ آيات كل نبي مناسبة لقومه، باعتبار مابرعوا فيه وتميزوا به،

---

(١) انظر النبوات لابن تيمية: ٢٨٧، ٣٢٨.

فلما كان قوم موسى قد اشتهروا بالسحر أتاهم بما يناسبهم من الآيات الحسية التي تبطل سحرهم، ولما كان قوم عيسى قد اشتهروا بالطب أجرى الله ـ تعالى ـ على يديه إبراء المرضى بإذن الله، ولما كان العرب أرباب بيان وفصاحة أتاهم القرآن فأعجزهم وأخضعهم.

٣ ـ **أنه لايشترط في آيات الأنبياء أن يستدلوا بها ولا أن يتَحَدّوا**، كإخبار من تقدم بنبوة محمد ﷺ؛ فإنه دليل على صدقه، وإن كان هو لم يعلم بما أخبروا به، ولايستدل به[١].

٤ ـ **أن شأن آيات النبوة كشأن آيات القرآن، من حيث الإعلام والإلزام وتكذيب المكذبين**، فإذا كان كلام الله ـ تعالى ـ في القرآن، أو في غيره من كتبه المنزلة يتضمن الإعلام والإلزام منه لعباده، حيث تضمن إخباره وأمره لهم، فكذلك الشأن بالنسبة لآيات النبوة ودلائلها؛ فإنها تتضمن إخبار الله ـ تعالى ـ لعباده بأن هذا رسوله، كما أنها تتضمن أمره لهم بطاعته واتباعه والإيمان به، وهذا هو الإلزام.

أما تكذيب المكذبين فإنه كذلك واحد في الأمرين، فكما أنهم زعموا أن آياته القولية ليست من كلامه، بل هي قول البشر، وأن الرسول افتراها على الله، كذلك زعموا أن آياته الفعلية التي صدّق بها رسوله ليست منه، ولاتدل على صدق الرسول، وإنما هي من فعل الرسول نفسه وتأثيره، فينسبها إلى الله كذبا عليه، وهي في الحقيقه ـ بزعمهم ـ سحر مفترى[٢].

٥ ـ **أن دلائل النبوة مختصة بالأنبياء**، وهذا يعني أمرين: أنه لايشاركهم فيها أحد، وأنها ملازمة للنبوة، فتدل عليها ولو كان النبي ميتًا، أو غائبًا[٣].

---

(١) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٥٦.
(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص٣٣٤.
(٣) انظر المرجع السابق: ٣٨٧.

المبحث الأول

الإخبار بالمغيبات

الإخبار بالغيوب هو أهم مافي باب النبوات من مسائل ودلائل، كما أنه ألصقها بمدلول لفظة (نبي)، كما دل على ذلك أحد الوجهين في تفسيرها، وهو أنها من النبأ، وهو الخبر الذي له شأن وخطب[1]، وكما هي قراءة من قرأها بالهمز (نبيء)، فهي فعيل من النبأ بمعنى مفعول، أي: مُنَبَّأ، أو بمعنى فاعل، لأنه يُنبئُ بما يوحى إليه[2].

وقد قال الله ـ عز وجل ـ في وصف نفسه: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾﴾[3].

فذكر ـ سبحانه ـ أنه يُطلع رسله المرتضَينَ على ماشاء من غيبه، وهو ماكان له تعلق برسالاتهم من الشرائع، وماتثبت به نبوتهم من أنباء الغيب[4].

---

(١) والوجه الآخر أنها من النَّبْوة بمعنى الرفعة، من نبا ينبو بدون همز، انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ١/ ١٤٥، وفيه خطأ طباعي، حيث أُثبتت الهمزة في قوله: (نبا ينبو)، وانظر مقاييس اللغة لابن فارس: ٥/ ٣٨٤، ٣٨٥.

(٢) انظر عمدة الحفاظ في تفسير أشرف الألفاظ للسمين الحلبي: ٤/ ١٥٦، وقراءة الهمز هي قراءة نافع وحده، انظر السبعة لابن مجاهد: ص١٥٧، وزاد المسير لابن الجوزي: ١/ ٩٠.

(٣) سورة الجن: ٢٦ ـ ٢٨.

(٤) انظر زاد المسير لابن الجوزي: ٨/ ٣٨٥، والتحرير والتنوير لابن عاشور: ٢٩/ ٢٤٨.

وقال ـ تعالى ـ عن القرآن: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[1]، وهذه إشارة إلى أن مافي القرآن من الأسرار التي لايعلمها إلا الله ـ تعالى ـ دليل قاطع على أنه منزل من عند الله، وأنه الحق الذي لاشك فيه، وأن من أتى به صادق[2].

وإخبار الرسل بأنباء الغيب الذي جعله الله ـ تعالى ـ آية لنبوتهم ينقسم إلى أنواع ثلاثة[3]: الإخبار عن الله ـ تعالى ـ وملائكته واليوم الآخر وسائر عوالم الغيب، والإخبار بالغيوب الماضية، والإخبار بالغيوب المستقبلة.

وسأتكلم فيما يلي على كل واحد من هذه الأنواع، وكيفية دلالته على صدق الرسول.

أولاً ـ الإخبار عن أمور الغيب (أصول الاعتقاد).

والمقصود بذلك إخبار الأنبياء والمرسلين عموما، وخاتمهم خصوصا، بتفاصيل أصول الاعتقاد، التي جعل الله ـ تعالى ـ الإيمان بها أخص أوصاف المتقين، كما في قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾[4]، وذلك يتضمن الإخبار عن الله ـ تعالى ـ وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله وكلماته، وعن ملائكته، وعن اليوم الآخر ومايكون فيه، وعن الجنة والنار وصفتيهما، وعن سائر أمور الغيب الداخلة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾، فالإخبار بذلك كله على وجه التفصيل هو من أعظم الآيات الدالة على صدق الأنبياء عموما، ونبينا خصوصا ـ صلى الله عليه وعلى سائرهم ـ،

---

(١) سورة الفرقان: ٦.

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/١٩٨.

(٣) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١١/٣١٥، ومابعدها.

(٤) سورة البقرة: ١ ـ ٣.

ووجه ذلك: أنه يوافق بهذا الإخبار خبر من قبله من الأنبياء، من غير تعلم منهم، ولامن أتباعهم، فالدلالة هنا تتركز في هذه الموافقة، وطريق العلم بهذه الموافقة يكون بالنظر فيما بأيدي أتباعهم من بقايا كتبهم، ومقارنته بما جاء به ـ عليه الصلاة والسلام ـ، أو بالنظر فيما عند خواص علمائهم[1].

فالتوافق التام بين علوم الأنبياء، وتصديقُ بعضها لبعض ـ مع العلم اليقيني بعدم التقائهم وتواطئهم، أو توارثهم هذا العلم ـ دليل قاطع يشهد لهم جميعا بالصدق، من أولهم إلى آخرهم.

أما كيفية العلم بانتفاء تعلم اللاحق منهم من السابق، فهذا يُعلم باستقراء أحوالهم، وماتواتر من سيرهم.

وقد جاء في القرآن العظيم هذا الدليل المهم من دلائل النبوة، وفيه التنبيه إلى كفايته في الدلالة على صدق الرسول، وإغنائه عن الآيات الحسية، كما جاء في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾﴾[2]، يقول ابن تيمية في تقرير هذه الآية:

(فإنه أتاهم بتجلية مافي الصحف الأولى، كما في التوراة والإنجيل، مع علمهم بأنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئًا، فإذا أخبرهم بالغيوب التي لايعلمها إلا نبي، أو من أخبره نبي، وهم يعلمون أنه لم يعلم ذلك بخبر أحد من الأنبياء، تبين لهم أنه نبي، وتبين ذلك لسائر الأمم؛ فإنه إذا كان قومه المعادون وغير المعادين له مقرين بأنه لم يجتمع بأحد يُعلّمه ذلك، صار هذا منقولاً بالتواتر، وكان مما أقر به مخالفوه، مع حرصهم على الطعن لو أمكن)[3].

---

(١) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١١/٣١٦.

(٢) سورة طه: ١٣٣.

(٣) الجواب الصحيح: ١/٤٠٧، ٤٠٨، وانظر منه: ٥/٣٤٤.

ومن إشارات القرآن إلى هذا الدليل: ما جاء من ذكر تعليم النبي ﷺ وغيره من الأنبياء وسائر الناس مالم يكونوا يعلمون هم ولا آباؤهم من علوم الكتاب والحكمة، كما في قوله ـ تعالى ـ لمحمد ﷺ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾[1]، وكما دل عليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۚ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ﴾[2]، يقول ابن القيم: (جعل ـ سبحانه ـ تعليمهم مالم يعلموا هم ولا آباؤهم دليلاً على صحة النبوة والرسالة، إذ لايُنال هذا العلم إلا من جهة الرسل، فكيف يقولون: ما أنزل الله على بشر من شيء)[3].

ومما يحمل هذه الدلالة ماوصف الله ـ تعالى ـ به نبيّه ﷺ في ردّه على قول المشركين: ﴿أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾[4]، قال ـ تعالى ـ رادًا عليهم: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾[5]، وشاهدُنا هنا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾؛ فإن معناها ـ كما يقول الواحدي ـ أن محمدًا (إنما أتى بما أتى به مَن قبله من الرسل)[6].

ولاشك أن ذكر هذا الوصف في معرض الرد على من وصفه بأنه شاعر مجنون، يعني اعتباره قطعي الدلالة على صحة نبوته.

هذه بعض الشواهد القرآنية التي ذُكر فيها هذا الدليل، والأمثلة غيرها كثيرة، وسيأتي الكثير منها عند ذكر النوع الخامس من دلائل

---

(١) سورة النساء: ١١٣.
(٢) سورة الأنعام: ٩١.
(٣) مفتاح دار السعادة: ١/ ٥٧.
(٤) سورة الصافات: ٣٦، ٣٧.
(٥) سورة الصافات: ٣٦، ٣٧.
(٦) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي: ٣/ ٥٢٥.

النبوة، وهو دلالة مضمون الرسالة.

ثانيا ـ الإخبار بالغيوب الماضية.

من المعلوم أن الغيبيات تنقسم إلى مطلقة ونسبية، فالمطلقة لايعلمها إلا الله ـ تعالى ـ ومَن شاء أن يطلعه عليها من خلقه، وأما النسبية فهي ماغابت عن بعض الناس؛ لعدم إدراك حواسهم لها، وعدم وصول خبرها إليهم، وإن كان بعضهم الآخر عالما بها مطلّعا عليها.

ومثال هذا قوله ـ تعالى ـ عن عيسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1].

فهذا غيب بالنسبة لعيسى عَلِمه بالوحي، وهو شهادة بالنسبة لمن يخاطبهم من بني إسرائيل، وكذلك قوله ـ تعالى ـ عن يوسف: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّيٓ﴾[2]، وكذلك مارواه ابن إسحاق بسنده عن عروة بن الزبير أن صفوان ابن أمية وعمير بن وهب تآمرا عند الكعبة على اغتيال النبي ﷺ، ولم يعلم بهما أحد، فأطلع الله نبيّه على ذلك، وكان هذا سببا لإسلامهما[3]. وأمثلة هذا كثيرة.

ولافرق بين نوعي الغيب بالنسبة لعدم إدراك الإنسان له، وانقطاع علمه عنه، فكلّه غيب بالنسبة له، ويمتنع انكشافه له إلا بسبب حسي، أو وحي من الله ـ تعالى ـ.

والغيوب الماضية من قصص الأمم السابقة مع رسلهم وغيرها تدخل في الغيب النسبي، فقد يكون معلومًا لدى بعض الأمم متواترًا

---

(١) سورة آل عمران: ٤٩.

(٢) سورة يوسف: ٣٧.

(٣) انظر السيرة النبوية لابن هشام: ١/٦٦١، ٦٦٢، وتاريخ الإسلام للذهبي، المغازي: ٧١ ـ ٧٣.

لديهم، منقطعًا عن غيرهم من الأمم، كما هو شأن كثير من أخبار بني إسرائيل، فهي معلومة لدى أهل الكتاب، وإن كانت مجهولةً لدى أكثر العرب، وقد تنقلب بعض الأخبار الماضية غيبًا مطلقا، بسبب انقطاعها عن أهل الأرض جميعا، كما ذكر الله ـ تعالى ـ في قوله عمّن جاء من الأمم بعد ثمود: ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ لَا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا ٱللَّهُ﴾[1].

فهذه الأخبار الغيبية الماضية بأنواعها قد جاء بها محمد ﷺ، وكلها دلائل تشهد بصحة نبوته، فإنه ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ: (كان يخبر الناس بالأمور الماضية خبرًا مفصلاً لايعلمه أحد، إلا أن يكون نبيا أو من أخبره نبي، وقومه يعلمون أنه لم يخبره بذلك أحد من البشر، وهم مع عداوتهم له وحرصهم على مايطعنون به عليه لم يمكنهم أن يطعنوا طعنا يُقبل منهم، وعَلِم سائر الأمم بأن قومه المعادين له المجتهدين في الطعن عليه لم يمكنهم أن يقولوا: إن هذه الغيوب علّمها إياه بشر، فوجب على جميع الخلق أن يقروّا بأن هذا لم يعلمه إياه بشر)[2].

فهذه الدلالة إذن مستندة إلى ثبوت عدم تعلمه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من بشر، وهذا ماسنبينه إن شاء الله تعالى ـ في المبحث الأخير من هذا الفصل.

وقد كان إخبار النبي ﷺ بالغيوب الماضية على نوعين:

١ ـ ماكان الله تعالى يخبره به ابتداءً، ويجعله علَما وآية لنبوته، وذلك كسائر قصص الأنبياء الواردة في القرآن.

٢ ـ جواب ماكان يسأله عنه المشركون وأهل الكتاب، ليُنظر هل هو نبي أم لا؟، وذلك كقصة أصحاب الكهف وذي القرنين[3].

---

(١) سورة إبراهيم: ٩.

(٢) الجواب الصحيح: ١/ ٤٠٣، بتصرف واختصار.

(٣) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/ ٣١٩.

وكل من هٰذين النوعين له دلالتان:

أ ـ دلالةٌ على صدق دعوى النبوة، من جهة أنه إخبار بالغيب الذي لايعلمه إلا نبي علمه الله.

ويوضح هذه الدلالة الشيخ السعدي في تعليقه على قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾﴾[1] فيقول: (والمقصود: أن المُجريات التي جرت لموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ في هذه الأماكن فقصصتها كما هي، من غير زيادة ولانقص، لايخلو من أحد أمرين: إما أن تكون حضرتها وشاهدتها، أو ذهبت إلى محالّها فتعلمتها من أهلها، فحينئذ قد لايدل ذلك على أنك رسول الله، إذ الأمور التي يخبر بها عن شهادة ودراسة من الأمور المشتركة غير المختصة بالأنبياء، ولكن هذا قد علم وتُيقِّن أنه ما كان وما صار، فأولياؤك وأعداؤك يعلمون عدم ذلك، فتعين الأمر الثاني، وهو أن هذا جاءك من قبل الله ووحيه وإرساله)[2].

ب ـ دلالة على صدق دعوى النبوة، من جهة الاعتبار بما في هذه الأخبار من أحوال المؤمنين والكافرين، مما يوجب اتّباع سبيل المؤمنين الذين اتبعوا الرسل السابقين، وتجنب سبيل الكافرين الذين خالفوا الرسل السابقين، إذ حكم الشيء حكم نظيره[3].

ولهذه القصص والأخبار الماضية أيضًا دلالة على نبوة الأنبياء قبل محمد ﷺ وذلك من وجهين:

---

(١) سورة القصص: ٤٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمٰن في تفسير كلام المنان: ٤/٢٣، وانظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/٣٢٥.

(٣) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/٣٢٠.

* أنهم أخبروا به قبل أن يبعث بسنين كثيرة، فكان الأمر كما أخبروا.

* أنه أخبر بمثل ما أخبروا به، من غير مواطأة بينهم وبينه، وأخبروا بأخبار مفصلة يمتنع الاتفاق عليها عادة إلا بتواطؤ، فعُلم أن كلاً من المخبرَين صادق[1].

أما الإشارات القرآنية إلى دلالة الإخبار بالغيب الماضي على صدق النبوة فتجيء عادة بعد ذكر قصص الأنبياء مع أممهم، وعلى ذلك الأمثلة التالية:

- قال - تعالى - بعد ذكر قصة نوح مع قومه: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾﴾[2].

قال ابن تيمية معلقا على هذه الآية:

(فذكر أن هذا الذي أوحاه إليه من أنباء الغيب ماكان يعلمه هو ولا قومه من قبل هذا؛ فإذا لم يكن قومه يعلمون ذلك لامن أهل الكتاب ولامن غيرهم، وهو لم يعاشر إلا قومه، وقومُه يعلمون ذلك منه، ويعلمون أنهم لم يكونوا يعلمون ذلك، ويعلمون أيضا أنه هو لم يكن تعلّم ذلك، وأنه لم يكن يعاشر غيرهم، صار ذلك حجة على قومه، وعلى من بلغه خبر قومه)[3].

- قال - تعالى - بعد ذكر قصة آل عمران: ﴿وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[4].

---

(١) انظر الجواب الصحيح: ٥/ ٣٢٠.
(٢) سورة هود: ٤٩.
(٣) الجواب الصحيح: ٥/ ٣٢٣.
(٤) سورة آل عمران: ٤٤.

وقد نبه محمد بن أبي بكر الرازي[1] إلى وجه الدلالة في هذه الآية بإيراد سؤال يقول: (كيف نفى حضور النبي ﷺ في زمن مريم... وذلك معلوم عندهم لاشك فيه، وترك استماعه ذلك الخبر من حُفّاظه، وهو الذي كانوا يتوهمونه؟ [يعني كفار مكة، ثم أجاب على ذلك ببراعة مبينًا وجه الدلالة في الآية بقوله] كان معلومًا أيضا عندهم علما يقينيا أنه ليس من أهل القراءة والرواية، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة والحضور، وهي غاية الاستحالة، فنُفيت على طريق التهكم بالمنكرين للوحي، مع علمهم أنه لاقراءة له ولا رواية.)[2].

ـ قال ـ تعالى ـ بعد ذكر قصة موسى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾[3]، وقد تقدم كلام السعدي في تقرير دلالتها.

ـ قال ـ تعالى ـ بعد الخبر عن إنزاله القرآن: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾[4].

والشاهد في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾﴾، فإن هذا تنبيه إلى أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ماكان

---

(١) هو محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، زين الدين: صاحب مختار الصحاح في اللغة، من فقهاء الحنفية، وله علم بالتفسير والأدب، توفي بعد سنة ٦٦٦هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ٥٥.

(٢) نموذج جليل في أسئلة وأجوبة من غرائب التنزيل، أو مسائل الرازي وأجوبتها، لمحمد بن أبي بكر الرازي: ص٣٢.

(٣) سورة القصص: ٤٤ ـ ٤٦.

(٤) سورة يوسف: ٣.

يعلم شيئًا من شأن القرآن، ومافيه من قصص السابقين، قبل أن ينزل عليه الوحي من ربه بذلك[1]، ونحو هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾[2].

ـ وقال ـ تعالى ـ بعد ذكر قصة يوسف مع إخوته: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[3].

ثالثا ـ الإخبار بالغيب المستقبل.

ودلالة الإخبار بالغيب المستقبل إنما تظهر وتقوم بها الحجة عند وقوعها وفق ما أُخبر به عنها؛ فإذا وقع المخبر به كما كان أُخبر عنه فيما مضى عُرف صدق من أخبر به، وهذا لايمكن أن يخبر به إلا نبي أو من أخذ عن نبي، ونبينا محمد ﷺ معلوم أنه لم يأخذ عن أحد من الأنبياء شيئا، فدل وقوع ما أخبر به أنه سيقع وفق ما أخبر على صدق نبوّته[4].

والأمثلة على هذا كثيرة جدًا في الكتاب والسنة، ومما جاء في القرآن من ذلك:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿الم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ... الآيات﴾[5].

روى الترمذي بسنده عن نَيار بن مكرّم الأسلمي أن أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ تحدى المشركين بهذه الآية، وأنه لما وقع ما أخبرت به أسلم ناس كثير، وأن ذلك وقع يوم بدر[6].

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١٢/ ١٥٠.
(٢) سورة الشورى: ٥٢.
(٣) سورة يوسف: ١٠٢.
(٤) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٥٤، ١٥٥.
(٥) سورة الروم: ١ ـ ٥.
(٦) السنن، كتاب تفسير القرآن، باب (ومن سورة الروم)، (٥/ ٣٤٤، ٣٤٥) =

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ بعد تحدي المشركين أن يأتوا بسورة من مثل القرآن: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾[١]، ومعلوم أنهم لم يفعلوا البتة.

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[٢] وهذا وعد من الله ـ تعالى ـ للمؤمنين بهزيمة المشركين، وقد صدق الله ـ تعالى ـ وعده هذا يوم بدر.

روى ابن جرير بسنده عن عكرمة أن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ لما نزلت هذه الآية جعل يقول: أيُّ جمع يهزم؟ فلما كان يومُ بدر رأى النبي ﷺ يثب في الدرع ويقول: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾[٣].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[٤]، ومعلوم لكل أحد أن هذا الوعد الصادق قد تحقق للمسلمين لما وفوا بشرطه.

٥ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ

= برقم (٣١٩٤) وقال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب، وانظر المسند: ١/٢٧٦، ٣٠٤، ودلائل النبوة للبيهقي: ٢/٩١، وتفسير ابن جرير: ٢١/١٢، ومستدرك الحاكم، كتاب التفسير ٢/٤٢٤، وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وذكر ابن تيمية أن ذلك مشهور متواتر عند أهل التفسير والمغازي والحديث والفقه، وأن القصة متواترة عند الناس، انظر الجواب الصحيح: ١/٤٠٨.

(١) سورة البقرة: ٢٤.

(٢) سورة القمر: ٤٥.

(٣) جامع البيان: ٢٧/١٠٨، وأخرج نحوه الطبراني في الأوسط عن أبي هريرة، انظر الدر المنثور للسيوطي: ٦/١٨٤.

(٤) سورة النور: ٥٥.

جَهَنَّمَ ﴾[1] وقد تحقق هذا وشاهده الناس في الدنيا، وهذا يصدق الخبر الثاني في الآية[2].

٦ ـ وعده ـ تعالى ـ في آيات عديدة بإظهار دينه على الدين كله، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾[3]، ووقوع هذا معلوم لكل أحد.

٧ ـ قوله ـ تعالى ـ عن اليهود: ﴿ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا ﴾[4].

قال قوّام السنة الأصبهاني: (قد قطع عليهم في هذا القول أنهم لايتمنونه أبدًا فكان كذلك، وفي امتناعهم من تمني الموت دليل على علمهم بصدقه، وإلا فأي شيء أسهل من أن يقولوا قد تمنينا الموت)[5] والأمثلة القرآنية على هذا كثيرة جدًا[6].

أما ما جاء في السنة من ذلك فلا يكاد يُحصى[7]، فمن ذلك ما رواه الشيخان عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا هلك كسرى فلا كسرى بعده، وإذا هلك قيصر فلا قيصر بعده[8]، والذي

---

(١) سورة آل عمران: ١٢.
(٢) انظر الجواب الصحيح: ١/ ٤١٠.
(٣) سورة التوبة: ٣٣، والفتح: ٢٨، والصف: ٩.
(٤) سورة البقرة: ٩٤، ٩٥، ونحوها في الجمعة: ٦، ٧.
(٥) الحجة في بيان المحجة: ١/ ٣٥٢.
(٦) انظر المرجع السابق: ١/ ٣٥١، ومابعدها.
(٧) أحيل القارىء الكريم في ذلك إلى رسالة علمية بعنوان: (نبوءات الرسول ﷺ: ماتحقق منها ومايتحقق) لمحمد ولي الله عبدالرحمن الندوي، وقد نشرتها دار السلام بالقاهرة. وإلى كتاب: الصحيح المسند من دلائل النبوة للشيخ مقبل الوادعي: ص٤٠١ ومابعدها.
(٨) المراد أنهما لم تبق مملكتها على الوجه الذي كان في زمن النبي ﷺ، فلم =

نفسي بيده لتُنفقن كنوزهما في سبيل الله ـ عز وجل ـ)[1].

ومن ذلك ما جاء من أحاديث الفتن وأخبار آخر الزمان وأشراط الساعة، روى الشيخان عن عمرو بن تغلب عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: (لاتقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك صغار الأعين، دلف[2] الأنوف، حمر الخدود، ينتعلون الشعر، كأن وجوههم المجانّ المطْرَقة[3])[4].

وروى الشيخان عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء لها أعناق الإبل ببصرى)[5].

قال ابن تيمية: (وهذه النار قد خرجت قبل مجيء الكفار إلى

= يبق كسرى بالعراق، ولاقيصر بالشام، فلا يُستشكل بقاء مملكتيهما بعد النبي ﷺ. انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٧٢٣، ٧٢٤.

(١) صحيح البخاري، كتاب المناقب باب علامات النبوة في الإسلام، (٣/ ١١٣٥) حديث رقم: (٢٩٥٣). وصحيح مسلم، كتاب الفتن، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر. . . ، (٤/ ١٧٧٢) حديث رقم: (٢٩١٩).

(٢) جمع أدلف، بالإعجام وبالإهمال، قيل معناه الصغر، وقيل الاستواء في طرف الأنف، وقيل تشمير الأنف عن الشفة العليا، وقيل غير ذلك، وقد جاء في رواية «فطس الأنوف»، والفطس الانفراش. انظر فتح الباري لابن حجر العسقلاني: ٦/ ٧٠٣.

(٣) قال البيضاوي: شبه وجوههم بالترسة لبسطها وتدويرها، وبالمطرّقة لغلظها وكثرة لحمها [نقلاً عن ابن حجر في فتح الباري: ٦/ ٧٠٣].

(٤) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، (٣/ ١٠٧٠) حديث رقم (٢٧٦٩) (٢٧٧٠)، وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب لاتقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل. . ، (٤/ ١٧٦٩)، حديث رقم: (٢٩١٢).

(٥) صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب خروج النار، (٦/ ٢٦٠٥)، حديث رقم: (٦٧٠١)، وصحيح مسلم، كتاب الفتن وأشراط الساعة باب لاتقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز، (٤/ ١٧٦٤) برقم: (٢٩٠٢).

بغداد سنة خمس وخمسين وستمائة، وقد تواتر من أهل بصرى أنهم رأوا ببصرى أعناق الإبل من ضوء تلك النار، وخبر هذه النار مشهور متواتر، بعد أن خرجت بجبال الحجاز، وكانت تحرق الحجر ولاتنضج اللحم[1]، وفزع لها الناس فزعًا شديدًا)[2].

والأحاديث في هذا كثيرة جدًا.

وفي آخر هذا المبحث عن دلالة الإخبار بالغيوب على صدق نبوة الأنبياء أود أن أنبه إلى مسألة مهمة، وهي أنه قد يقول قائل: كيف يكون الإخبار عن الغيب آية على صدق الرسل، ونحن نرى الكهنة والمنجمين والعرافين يخبرون بذلك فيصيبون أحيانا أو كثيرًا؟

والجواب أنّ حال الفريقين لايمكن أن يلتبس على العقلاء، لما بينهما من الفروق العظيمة، التي هي غاية في التضادّ، كما يظهر من أحوالهم وأقوالهم وأفعالهم، وسيأتي تفصيل ذلك في المبحث التالي، عند الحديث عن الفرق بين النبي والساحر، والخوارق الإلـهية والخوارق الشيطانية[3].

كما وأنّ غير الأنبياء إنّما يصلون إلى معرفة بعض المغيّبات أحيانا بأسباب تؤدي إلى ذلك، يستخرجونها ويحتالون لها، ويعانون في طلبها، كما يفزع المنجّم إلى حسابه، والمتكهّن إلى رَئيّه، وذلك معلوم من أحوالهم، وأما أنبياء الله ـ عليهم السلام ـ فإنما كانوا يُخبَرون بذلك من غير استخراج ولاطلب حيلة لمعرفته، بل يُعلمهم الله ـ تعالى ـ

---

(١) هذا الوصف زائد على مافي الحديث، ويحتاج إلى النظر في ثبوته، والآية على النبوة هنا ليست النار بذاتها، بل الخبر عنها قبل وقوعها، ولاعلاقة لذلك بما ذكر من وصفها.

(٢) الرد على المنطقيين: ص٤٤٦.

(٣) انظر ص٤٨١.

به ابتداءً على الوجه الذي يعلم الخلق به أنّه لايوصل إليه إلا من قبل الله ـ تعالى ـ، وهذا هو الفصل ـ كما يقول الإمام الطبري ـ بين علم الأنبياء بالغيوب، وإخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على الله، أو المدعية علم ذلك[1].

(١) انظر تفسير الطبري: ٣/ ٢٧٨.

obeikandl.com

المبحث الثاني
الآيـات الحسيـة

وهي مايحدثه الله ـ تعالى ـ من خرق للعادة، ونقض للسنن والقوانين التي يدبر عليها خلقه، على وجه يدل على صدق النبي والرسول في دعوى النبوة والرسالة، سواء كان ذلك بطلب من النبي، أو من قومه، كإنزال المائدة لعيسى، أو كان من الله ابتداءً من غير طلب، كمباركة الطعام لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، وسواء كان ذلك مقرونا بتحدٍ للكفار، مثل انشقاق القمر لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ، ووصفه لبيت المقدس، أو لم يكن كذلك، مثل نبع الماء من بين أصابعه.

ويبين العلماء وجه الدلالة في هذه الآيات على صدق الرسول بضرب مثال، وهو أنه لو قام رجل في مجلس أحد الملوك، وقال للحاضرين: إن الملك يأمركم بطاعتي واتباعي، والدليل على صدق قولي أن الملك سيخرق عادته، ويقوم من مكانه ويقعد الآن، ثم فعل الملك ذلك، لدل ذلك دلالة قاطعة لاشك فيها على صدق دعواه على الملك، أنه أمّره على الناس، وأمرهم بطاعته[1].

فكذلك إذا خرق الله ـ تعالى ـ عادته في أفعاله في مخلوقاته، تصديقا لنبيّه، دل ذلك قطعا على صدق ذلك النبي، وإقرار الله ـ تعالى ـ له على دعوى النبوة، بل وتأييده فيها، وهي دلالة ضرورية لاتحتاج إلى نظر، وتورث يقينًا بمدلولها فور العلم بها.

ولما كان طبع الناس مائلاً إلى الإيمان بالمحسوسات، فقد يسّر

---

(١) انظر مثلاً الداعي إلى الإسلام لأبي البركات بن الأنباري: ص٢٨٥.

الله ـ تعالى ـ برحمته وحكمته من الآيات الحسية لأنبيائه مايكفي معشاره لمن أراد الإيمان، إلا أنا نلحظ ـ ونتعجب ـ أن الغالب فيمن يطلبون الآيات الحسية من أنبيائهم من الكفار أنهم لايؤمنون. كما ذكر الله ـ تعالى ـ عن آل فرعون، وهم أشهر وأكثر من جاءتهم الأنبياء بالآيات الحسية: ﴿ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿١٣٥﴾ فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ ﴾[1].

فهم لم يذكروا هذه الآيات، ولم يتأملوا مادلت عليه من صدق موسى ـ عليه السلام ـ، فذمهم الله ـ تعالى ـ على الغفلة عن آياته، وعدم النظر والتأمل فيها، حيث إنها آيات محسوسة مشاهدة، فإذا جُرد العقل عن الغفلة، وحدق النظر فيها، حصل له العلم بمدلولها، وقد يحصل العلم بذلك، ولكن يمنع من الخضوع له اتّباع الهوى، كما قال ـ تعالى ـ عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾[2]، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (الحق إذا ظهر صار معلوما بالضرورة، والآيات والدلائل الظاهرة تدل على لوازمها بالضرورة، لكن اتباع الهوى يصد عن التصديق بها، واتباع ما أوجبه العلم بها، وهذه حال عامة المكذبين، مثل مكذبي محمد وموسى ـ عليهما السلام ـ وغيرهما؛ فإنهم علموا صدقهما علما يقينيا، لما ظهر من آيات الصدق ودلائله الكثيرة، ولكن اتباع الهوى صدهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ

---

(١) سورة الأعراف: ١٣٢ ـ ١٣٦.

(٢) سورة النمل: ١٤.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ ٣٣﴾[1])[2].

فتكذيب المكذبين إذن ـ رغم مشاهدتهم ومعاينتهم مايقتضي تصديقهم من الآيات الحسية ـ إنما يرجع إلى هذا السبب، لا إلى قصور في دلالة هذه الآيات.

وقد كان لنبينا ـ عليه الصلاة والسلام ـ الحظ الوافر من هذه الآيات، كما سجلت ذلك كتب السيرة والدلائل، فضلاً عن القرآن وكتب الحديث، إلا أنّ شمس القرآن قد بهرت الناظرين، فلم يروا الآيات الحسية لنبينا ﷺ كما رأوها لغيره من الأنبياء ـ عليهم السلام ـ.

ومن أعظم ذلك وأشهره ماذكره الله ـ تعالى ـ من انشقاق القمر فلقتين، آيةً على صدقه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ﴾[3].

قال ابن تيمية: (. . . وانشقاق القمر قد عاينوه وشاهدوه، وتواترت به الأخبار، وكان النبي ﷺ يقرأ هذه السورة في المجامع الكبار، مثل الجمع والأعياد، ليسمع الناس مافيها من آيات النبوة ودلائلها والاعتبار، وكل الناس يقرّ ذلك ولاينكره، فعُلم أن انشقاق القمر كان معلوما عند الناس عامة)[4].

ويقول: (ومعلوم بالضرورة في مّطرد العادة أنه لو لم يكن انشق لأسرع الناس المؤمنون به إلى تكذيب ذلك، فضلاً عن أعدائه من الكفار والمنافقين، لاسيما وهو يقرأ عليهم ذلك في أعظم مجامعهم)[5].

---

(١) سورة الأنعام: ٣٣.

(٢) النبوات: ٢٣١، ٢٣٢، بتصرف.

(٣) سورة القمر: ١، ٢.

(٤) الجواب الصحيح: ١/ ٤١٤، وانظر منه: ١/ ٤١٨، ٤١٩.

(٥) الجواب الصحيح: ١/ ٤١٩، وفي صحيح مسلم عن أبي واقد الليثي قال: =

ويسمي علماء الكلام هذا النوع من الآيات: المعجزات، نظرًا لحالها من عجز الخلق عن أن يأتوا بمثلها، ولاشك بأن على هذا مدار اعتبارها، لأمن التباسها بخوارق العادات الداخلة في مقدور الخلق، كالخوارق الشيطانية؛ فإنه ليس كل خرقٍ للعادة يكون معجزًا دالاً على النبوة.

كما يُشترط في هذه الآيات التلازم بينها وبين دعوى النبوة، بأن تقع على وفق ما أخبر به النبي، أو بطلب منه، أو تظهر على يديه مختصة به، على وجه مغاير لما يكون في مقدور البشر، لذلك يمتنع أن يستدل نبي بآية بعد ظهورها، إذ لاتلازم في هذه الحال، كما يمتنع أن يحتج بخارق لايختص به، ويظهر على غيره من غير الأنبياء.

وقد قلل الفيلسوف ابن رشد من شأن المعجزات الحسية، وضعف دلالتها، إذ كانت في نظره ليست من العلامات الخاصة بالرسل؛ لأن العقل لايدرك ارتباطا بينهما، وحَصَر الإعجاز فيما كان من الأفعال المعجزة الداخلة في أفعال الرسالة، كالإعجاز في التشريع، وإصلاح النفوس، وتهذيب الأخلاق والسلوك، وغير ذلك من المعارف التي هي من شأن الأنبياء، أما المعجزات الحسية فلا تفيد اليقين عنده، وإنما تصلح لإقناع الجمهور، وضرب ابن رشد لذلك مثالاً فقال: (لو أن شخصين ادّعيا الطب، فقال أحدهما: الدليل على أني طبيب أني أسير على الماء [وقال الآخر: الدليل على أني طبيب أني] أبرىء هذه المرضى، لكان تصديقنا بوجود الطب للذي أبرأ المرضى ببرهان، وتصديقنا بوجود الطب للذي مشى على الماء مقنعا، ومن طريق الأولى

= كان ﷺ يقرأ فيهما ـ العيدين ـ بقاف والقرآن المجيد، واقتربت الساعة وانشق القمر، انظر صحيح مسلم، كتاب صلاة العيدين، باب ما يقرأ به في صلاة العيدين: (٢/٥٠٧) حديث رقم (٨٩١).

والأحرى، ووجه الظن الذي يعرض للجمهور في ذلك: أن من قدر على المشي على الماء الذي من صنع البشر، فهو أحرى أن يقدر على الإبراء الذي هو من صنع البشر، وكذلك وجه الارتباط الذي بين المعجز الذي ليس هو من أفعال الصفة ـ والصفة التي استحق بها النبي أن يكون نبيا هي الوحي ـ وبين[1] هذه الصفة هو مايقع في النفس أن مَن أقدره الله على هذا الفعل الغريب، وخصه به من سائر أهل وقته. فليس يبعد عليه مايدعيه، من أنه قد آثره الله بوحيه)[2].

ومع موافقتنا لابن رشد على أن القرآن وماتضمن من أنواع الهداية النبوية هو الآية الكبرى التي لاتدانيها آية من آيات النبوة، إلا أنا لانوافقه في التقليل من شأن الآيات الحسية؛ فإنه ليس جميع الأنبياء قد أوتي قرآنا معجزًا، يدل دلالة قاطعة على نبوته، فهل يعني هذا عدم قيام الدليل القاطع على نبوتهم؟ كما أن علوم الأنبياء ومضمون دعوتهم تبقى عادة في أتباعهم عدة أجيال، فلو جاء أحد يدعو إلى مثل طريقتهم، ويدّعى النبوة، وهو كاذب في حقيقة الأمر، لم يكن من سبيل إلى معرفة كذب دعواه على قول ابن رشد هذا، ولم يبق إلا انضمام دلائل النبوة إلى أحواله وأقواله للوقوف على حقيقة أمره.

والمثال الذي ذكره فيه مغالطة؛ فإنه جعل الآيات الحسية تقابل مشي أحد الرجلين على الماء، واستدلاله بذلك على طبه، والواقع أن هذه المقابلة غير منصفة، والإنصاف والصواب أن تقابل الآيات الحسيّة في المثال بشهادة طبيب أعظم، قد اشتهر عند الناس، وعُرف بخبرته الكاملة في الطب، فشهادة هذا الطبيب الأعظم أوثق وأقطع في الدلالة

---

(١) مناهج الأدلة: ص١١٩، ١٢٠، ومابين [ ] زيادة من عندي اقتضاها السياق، ويشبه أن تكون المطبوعة فيها سقط.

(٢) في المطبوع: ومن.

على طب من شهد له، من مجرد مداواة المرضى وإبرائهم أحيانا؛ فإنه لايلزم من حصول البرء على يد أحد من الناس أن يكون طبيبا، وقد تقدم أن الآيات الحسية قائمة مقام شهادة الله ـ تعالى ـ بصدق نبيه، وقوله: صدق عبدي فيما يبلغ عني، وجرى ضرب المثل لذلك، بما يبين الدلالة القاطعة التي لاشك فيها للمعجزات الحسية على صدق النبوة، وإن كان ذلك لايتم إلا بذكر الفارق اليقيني بين المعجز الإلـٰهي والخارق الشيطاني، وهذا ماسنبينه فيما يلي.

فإن الدلالة العقلية في هذا النوع من دلائل النبوة وإن كانت ظاهرة إلا أنها متوقفة على بيان الفرق بين معجزات الأنبياء وخوارق السحرة، ومتوقفة كذلك على بيان أن الأخبار المتضمنة لدلائل النبوة تفيد العلم، وفيما يلي بيان هـٰذين الأمرين:

الأول ـ الفرق بين النبي والساحر، والخوارق الإلـٰهية والخوارق الشيطانية.

لما كانت دلالة المعجزات الحسية على النبوة متوقفة على التفريق بين الخوارق الإلـٰهية والخوارق الشيطانية ـ حتى يتوصل بذلك إلى التمييز بين النبي والساحر ـ بينها الله ـ تعالى ـ أتم بيان، كما جاء ذلك في خاتمة سورة الشعراء، في قوله ـ تعالى ـ عن القرآن: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾.. (الآيات إلى قوله ـ تعالى ـ) ..﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾﴾[1].

فهذا السياق الكريم أصل في إثبات النبوة، والتفريق بين الأنبياء وآياتهم والكذابين وخوارقهم، وذلك أنه نبه إلى الحقائق التالية:

---

(١) سورة الشعراء: ١٩٢، ٢٢٧.

١ ـ أن آيات الأنبياء لايقدر عليها أحد غير الله، لامن الإنس ولامن الجن، فهي خارقة لعادة الثقلين. أما ما يأتي به الكهان والسحرة فإنه لايخرج عن كونه مقدورًا للجن أو الإنس، وهذا فارق بين نفس الخوارق، وقد أشار إليه قوله ـ تعالى ـ في هذا السياق: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾﴾[1].

وبناءً على هذا، فإن ما يأتي به هؤلاء الكذبة يمكن أن يُعارض بمثله، إذ كانت خوارقهم أمورًا معتادة معروفة لأصحابها، ليست خارقة لعادتهم، أما آيات الأنبياء فلا يمكن أحدًا معارضتها بمثلها البتة[2].

وهذا حتى بالنسبة لكرامات الصالحين كما سيأتي[3]؛ فإنها لاتكون من جنس آيات الأنبياء الكبرى، التي قال الله ـ تعالى ـ فيها: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَـٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾[4]، فهذه مختصة بالأنبياء، لايشاركهم فيها أحد من الأولياء، فضلاً عن أن يقدر عليها شياطين الإنس والجن، أما الآيات الصغرى، كتكثير الطعام والماء، فهذه قد يشاركهم فيها الصالحون، على فارقٍ عظيم في القدر، كما سيأتي بيانه، أما الخوارق الشيطانية فجنس آخر، يقوم على التحايل، والأسباب الخفية، والتخييل، فلا تلتبسُ بآيات الأنبياء الصغرى، فضلاً عن الكبرى[5].

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١١.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٨٨، ١٨٩، ٤٢٢، ومابعدها، وانظر أعلام النبوة للماوردي: ص٣٦.

(٣) ص ٤٨٦.

(٤) سورة النجم: ١٨.

(٥) انظر الفرق بين الآيات الصغرى والكبرى للأنبياء في النبوات لابن تيمية: ص٢٩٦.

٢ ـ أن من تظهر عليه آيات النبوة لايكون إلا صادقا فيما يخبر به، لايكذب قط، ولم يُجرَّب عليه كذب، أما أصحاب الخوارق الشيطانية فإنهم لابد أن يكونوا موصوفين بالكذب، وأنه عادة عندهم، وصفة ملازمة لهم، وهذا فارق يُعلم من حال من ظهرت عليه الخارقة وصفته وسيرته، وقد أشار إليه قوله ـ تعالى ـ في هذا السياق: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾﴾، والعقلاء يدركون هذا الفرق الواضح غاية الإدراك، كما كان من أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ، لما رأت النبي ﷺ قد خاف على نفسه، عندما نزل عليه الوحي في الغار، أن يكون ذلك من قبل الشياطين[1]، استدلت ـ لكمال عقلها ـ على أن الذي أتاه لايمكن أن يكون من هذا القبيل، بما علمت من أوصافه وأحواله المناقضة لإخوان الشياطين، فقالت ـ لما قال: «إني خشيت على نفسي» ـ: (كلا والله لايخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق).

قال ابن تيمية: (فاستدلت ـ رضي الله عنها ـ بحسن عقلها على أن من يكون الله قد خلّقه بهذه الأخلاق الكريمة التي هي من أعظم صفات الأبرار الممدوحين، أنه لايخزيه فيفسد الشيطان عقله ودينه، ولم يكن معها قبل ذلك وحي تعلم به انتفاء ذلك، بل علمته

---

(١) قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم عن عائشة، انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، (١/ ٥) حديث رقم: (٣)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، (١/ ١٢٦)، حديث رقم: (١٦٠).

بمجرد عقلها الراجح)[1].

وقد أنكر المتكلمون هذا التفسير لخشية النبي -ﷺ- في هذه القصة[2]، جريًا على منهجهم في رد النصوص التي يزعمون قدحها في عصمة الأنبياء، ويتكلفون لها تأويلات أشبه بتأويلات الباطنية[3]، فزعموا في هذا الحديث أن النبيّ -ﷺ- إنما خشي على نفسه الموت أو المرض، أو غير ذلك مما ذكروا، غير الظاهر المتبادر، المصرّح به في طرق أخرى[4]، وادعوا أن الله -تعالى- أحدث له علما ضروريًا بأنه نبي، بمجرد ملاقاته جبريل، وسماعه الوحي منه، بلا دليل على ذلك، وفرّطوا بذلك فيما في ظاهر القصة من دلالة بليغة مهمة، على خلوّ ذهن النبي تمامًا من شأن الوحي، وعدم توقعه له، أو خطوره له على بال، أو استعداده له، أو تعنّيه في طلبه، قبل أن يفجأه في الغار، حتى بلغ الأمر أن التبست عليه حقيقته، حتى يسّر الله له من ثبّته، وجلّى له حقيقة الأمر، فما كان أغناه لو كان متقوّلاً متصنعًا عن أن يقول: «قد خشيت على نفسي».

٣ - أن ما يأمر به النبي الصادق إنما يكون من جنس ما أَمرت به الرسل قبله، من العدل، وطلب الآخرة، وتوحيد الله، والبرّ والتقوى، وإلى

---

(١) منهاج السنة: ٢/ ٤٢٠، وانظر شرح الأصفهانيه له: ص٩٣.

(٢) انظر الشفا للقاضي عياض: ٢/ ٧٠٢، وفتح الباري لابن حجر: ١/ ٣٣، والمختار من كنوز السنة لدراز: ص٣، ٢٦، ٢٧.

(٣) انظر مجموع فتاوى ابن تيمية: ١٠/ ٢٩٥، في بحث نفيس حول عصمة الأنبياء في الصفحات: ٢٨٩ - ٢٩٩.

(٤) انظر طبقات ابن سعد: ١/ ١٣٠، وتاريخ الطبري: ١/ ٥٣٢، ودلائل النبوة لأبي نعيم: ص١٧١، والسيرة النبوية (ضمن تاريخ الإسلام للذهبي): ص١٣١. وانظر الوحي المحمدي لمحمد رشيد رضا: ص٦٢، حاشية (٢).

هذا الإشارة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾، أما الساحر والكاهن فإنما يأمران بالشرك والظلم، وتعظيم الدنيا، والإثم والعدوان، كما هو شأن نظرائه، وإلى هذا الإشارة بقوله ـ تعالى ـ: ﴿تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾﴾ فذكر من صفة هؤلاء الإثم، المناقض لمضمون دعوة النبوة إلى البر والإحسان[1].

هذه هي الفروق الأساسية المأخوذة من هذا السياق، والكافية كل الكفاية في التفريق بين النبي الصادق والمتنبىء الكاذب، والخوارق الإلـٰهية والخوارق الشيطانية.

ويمكن أن يضاف إليها طرق أخرى قد تكون راجعة إليها، أو مستنبطة منها، كما في الحقائق اللاحقة.

٤ ـ أن الكهانة والسحر والخوارق الشيطانية تُنال بالاكتساب: التعلم والسعي والطلب، كما هو مجرب ومعروف، بخلاف النبوة وآياتها؛ فإنه لاينالها أحد باكتسابه، وإنما هي اصطفاء من الله ـ تعالى ـ وابتداء منه، ولو قُدر أنها تُنال بالاكتساب، فإنما تنال بالأعمال الصالحة، والصدق والعدل والتوحيد، لاتحصل مع الكذب على الله وغيره، فالطريق الذي تحصل به ـ لو حصلت بالكسب ـ مستلزم للصدق على الله فيما يخبر به[2].

٥ ـ إن آيات الأنبياء وخوارقهم لاتكون إلا نافعة طيبة من جنسٍ خيّر، لايلزم منها شر ولا أذىً لأحد بغير حق، كما هو شأن الخوارق الشيطانية، الملازمة لأنواع الشرور.

٦ ـ ولامانع من أن يقال إجمالاً: إن الله ـ تعالى ـ لايبعث رسولاً ويؤيده

---

(١) انظر النبوات: ص١٨٨ ـ ١٩٠.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٨٨.

بالآيات إلا ويجعل له من القرائن والدلائل المحتفة به مايمتنع معه أن يقع أدنى التباس بينه وبين إخوان الشياطين، فمجموع أحوال كل من الفريقين أكبر شاهد على صدق أحدهما أو كذبه، كما أشار إلى ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾[1]، فجعل وصف الهداية للمرسلين موجبا لاتباعهم، أما الكاذبون على الله ـ تعالى ـ من إخوان الشياطين فلا ينفكون من وصف الضلالة، كما قال ـ تعالى ـ في أمثالهم: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾[2].

وكما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿قَالَ مُوسَىٰٓ أَتَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَكُمْ أَسِحْرٌ هَٰذَا[3] وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوٓا۟﴾[4]، فقد أنكر موسى وصفهم ما جاء به من الحق بأنه سحر، واستدل على ذلك بقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّٰحِرُونَ﴾، أي إنّهم لايتم لهم مايريدون، ولاينجحون في مآربهم، كما هو حال الرسل، المؤيدين من الله.

مسألة «التفريق بين آيات الأنبياء وكرامات الصالحين»

الذي دعا إلى هذه المسألة هو إنكار بعض أهل البدع للكرامات، بزعم أنها لو جاز وقوعها لالتبست بآيات الأنبياء، ولولا ذلك لما

---

(١) سورة يس: ٢١.

(٢) سورة المائدة: ٧٧.

(٣) الراجح أن هذا من قول موسى، وليس من قول فرعون وقومه، بدلالة دخول الاستفهام عليه، وهم يجزمون بكونه سحرًا، وأما قولهم فمحذوف دلّت عليه الآية السابقة لهذه الآية، وهي قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٦﴾﴾، ونحو هذا الحذف أسلوب عربي معروف. انظر تفسير الطبري: ١١/ ١٤٥، ١٤٦.

(٤) سورة يونس: ٧٧.

احتجنا إلى إيرادها، فالصالحون لايُتصوّر منهم ادعاء النبوّة، وكرامات الصالحين من جنس معجزات الأنبياء، بل هي داخلة فيها[1]، فهي كرامة للولي، ومعجزة للنبي في آن واحد؛ فإن الولي ما نالها وأُكرم بها إلا لصدقه في متابعة النبي، فدلت على صدق ذلك النبي، وطريق التفريق بينها وبين الخوارق الشيطانية هي نفس الطريق السابقة، في التفريق بين آيات الأنبياء وخوارق السحرة، أي أنها تعلم بمجموع أحوال وأقوال كل من الفريقين.

أما طرق التفريق بينها وبين آيات الأنبياء فكثيرة بينة، منها[2]:

١ ـ أن الكرامات معتادة في الصالحين من هذه الأمة ومن قبلها من الأمم، فهي ليست خارقة لعادة الصالحين، أما آيات الأنبياء فهي خارقة لعادة الصالحين، مختصة بالأنبياء.

٢ ـ أن الكرامات تُنال بالصلاح والدعاء والعبادة، أما معجزات الأنبياء فلا تنال بذلك، ولو طلبها الناس؛ حتى يأذن الله فيها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ﴾[3].

٣ ـ أن الأولياء أنفسهم لايدّعون النبوة، بل يشهدون على أنفسهم أنهم ماكانوا لينالوا هذه الكرامات من الله ـ تعالى ـ لولا لزومهم متابعة الأنبياء.

٤ ـ أن كرامات الأولياء من حيث خرقها للعادة لاتصل إلى حد آيات الأنبياء، وإن كانت تدخل معها في جنس خرق العادة، فإذا وُجد تكثير الطعام مثلاً على يد أحد من الصالحين؛ فإنه لايبلغ ما كان

---

(١) انظر النبوات لابن تيمية: ص٨.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٨٩، وص٤٢٢، ومابعدها، وإيثار الحق على الخلق لابن الوزير: ص٦٦، ٦٧.

(٣) سورة الأنعام: ١٠٩.

للنبي ﷺ من إطعام الجيش الكثير من الطعام اليسير، فقد يوجد لغير الأنبياء من جنس ما وُجد لهم، لكن لايماثلون في قدْره، فالأنبياء إذًا مختصون إما بجنس الآيات، فلا يكون إلا لمثلهم، وهذا في الآيات الكبرى، كالإتيان بالقرآن، وانشقاق القمر، وقلب العصا حية، وغير ذلك، وإما بقدرها وكيفيتها، كنار الخليل ـ عليه السلام ـ بالنسبة لنار أبي مسلم الخولاني[1]؛ فإنها ليست مثلها في قدرها وعظمتها، وكقول الذي عنده علم من الكتاب: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾[2] بالنسبة لقول العفريت: ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾[3]. [4]

الثاني ـ إفادة الأخبار المتضمنة لدلائل النبوة العلم.

من المعلوم أن معاينة الآيات الحسيّة للأنبياء ومشاهدتها مباشرة لم يتيسر لكل أحد، وإنما كان ذلك محصورًا فيمن حضرها ساعة ظهورها، كحال من كان موجودًا في الميدان الذي حصلت فيه المبارزة بين موسى ـ عليه السلام ـ وسحرة فرعون ـ رحمهم الله ـ، وكحال من أبصر بعيني رأسه انشقاق القمر فلقتين، تصديقا لنبينا محمد ـ عليه الصلاة والسلام ـ، فهل يقال: إن دلالة هذه الآيات البينات، والحجة بها إنما تتوجه على من حضرها وباشر مشاهدتها؛ لأن العلم الضروري

---

(١) تنبأ الأسود العنسي في اليمن، فأنكر عليه سيد التابعين عبدالله بن ثُوَب، المعروف بأبي مسلم الخولاني، فألقاه الأسود في نار عظيمة فلم تضرّه، فلما علم عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ بذلك قال: الحمد لله الذي لم يُمتني حتى أراني في أمة محمد من صُنع به كما صنع بإبراهيم الخليل. انظر هذا الخبر في سير أعلام النبلاء للذهبي: ٤/٨، ٩.

(٢) سورة النمل: ٤٠.

(٣) سورة النمل: ٣٩.

(٤) انظر النبوات لابن تيمية: ص٢٩٦.

بوقوعها إنما حصل لهؤلاء؟ الواقع أن هذا لم يقل به أحد[1]، بل لايمكن أن يقول به عاقل يدري مايقول، وذلك أن الإحساس المباشر بالبصر أو اللمس أو غير ذلك إنما هو طريق محدود جدًا من طرق العلم والمعرفة، ولو توقف العلم اليقيني بأي شيء عليه لأفضى ذلك إلى الجهل بأكثر الحقائق، والتشكيك في أكثر الضروريات، إذ إن عمر الإنسان محدود، كما أن إدراكه للمحسوسات قاصر، وهذه مسألة أظهر من أن ينبه عليها، ولكن المقصود أن المشاهدة البصرية وإن كانت أدق وأعمق وأعظم في الإدراك والإيقان بالشيء، إلا أنها أضيق من الطريق الآخر للمعرفة والعلم، ألا وهو السماع وتلقي الأخبار، الذي حقيقته أنه استفادة من إدراكات من النوع الأول المباشر، حصلت لأناس آخرين، فهو إذًا تعويض وتكميل للقصور الطبيعي الحاصل في الإحساس المباشر للإنسان، حيث لم يستوعب قدرًا كبيرًا من المدركات، وهذا وإن كان ينزل عن رتبة المباشرة، إلا أنه لاينزل عن رتبة الإفادة اليقينية، إذا توافرت فيه شروط ذلك، كالتواتر، أو الثقة مع احتفاف القرائن الدالة على الصدق، وثبوت الخبر.

والمقصود من هذا أن طريق العلم بهذه الآيات التي أيد الله ـ تعالى ـ بها أنبياءه ورسله بالنسبة لمن يأتي بعد زمنهم، هو نفس الطريق الذي علم به ذلك معاصروهم، ممن لم يباشروا ظهور الآية، تماما كما لو أن أحد الحاضرين في قصة موسى مع السحرة مثلاً كان ضريرًا أعمى لايرى؛ فإنه يوقن ويعلم ضرورةً بالذي حصل من ظهور موسى عليهم،

---

(١) انظر درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية: ٥/ ١٣٠، والرد على المنطقيين له: ص٣٢٩، حيث غلَّط من قال إن السمنية ينكرون ماسوى الحسيات حتى المتواترات، وأنهم إنما أنكروا مالايمكن الإحساس به، ولم ينكروا وجود مالا يحسون هم به. وقد تقدم التنبيه على هذا، راجع ص٣٢.

وتأييد الله ـ تعالى ـ له بالآيات البينات، من طريق سماع الناس حوله يخبرونه بذلك.

وبذلك نعلم أنه لاينبغي التقليل من شأن دلالة الآيات الحسية للأنبياء ـ عليهم السلام ـ، بدعوى أنه قد مضى زمنها وانقضى عهدها، وأفاد منها من أفاد عند معاينتها وحضورها، ثم لم يبق لها سلطان بعد ذلك على غيرهم، بل كل من بلغته وأتاه خبرها من طريق صحيح مفيد للعلم، فحكمه وحكم من حضرها سواء، وقد قامت عليه الحجة بها[1].

يقول ابن تيمية عن الأخبار والآثار التي تتضمن ذكر معجزات الأنبياء:

(وهذه الأخبار: منها ماهو في القرآن، ومنها ماهو متواتر يعلمه العامة والخاصة . . فإن كلاً من ذلك تواترت به الأخبار، واستفاضت، ونقلته الأمة جيلاً بعد جيل، وخلفا عن سلف، فما من طبقة من طبقات الأمة إلا وهذه الآيات منقولة مشهورة مستفيضة فيها، ينقلها أكثر ممن ينقل كثيرًا من القرآن، وقد نقلها وسمعها من الأمة أكثر ممن سمع ونقل كثيرًا من آيات القرآن، وأكثر ممن سمع ونقل أنه كان يسجد في الصلاة سجدتي السهو، وممن سمع ونقل نُصُب الزكاة وفرائضها، بل مواقيتُ الصلاة وأعدادها إنما شاع نقلها للعمل الدائم بها، وأما هذه الآيات فنقلها أكثر من مواقيت الصلاة من جهة الأخبار المعينة، وذلك أن آيات الرسول كان كثيرًا منها يكون بمشهد من الخلق العظيم، فيشاهدون تلك الآيات، كما شاهد أهل الحديبية وهم ألف وخمسمائةٍ نبع الماء من بين أصابعه، وظهور الماء الكثير من بئر الحديبية، لما نزحوها ولم يتركوا فيها قطرة، حتى روى العسكر . . وكانوا ينقلون ذلك بينهم، وهو مشهور ينقله بعض من شاهده إلى من غاب عنه،

---

(١) انظر أعلام النبوة للماوردي: ص٤٥.

فكان استفاضة آياته وشهرتها وتواترها في الأمة أعظم من تواتر سجود السهو في الصلاة؛ فإن هذا إنما كان مرات قليلة، ولم يحضره إلا المصلون خلفه لتلك الصلاة، وكذلك نقلهم لنصُب الزكاة وفرائضها . . وكذلك حكمه بالشفعة . .) إلى أن قال: (فإذا كان مثل هذه الأمور تواتر في الأمة، واتفقت على نقله، فكيف بما كان أشهر وأظهر عند من عاينه، وكان علم الذين رأوه به أظهر من علمهم بهذه الأحكام، وقد نقلوا ذلك إلى من غاب عنهم؛ فإنه قطعا يجب أن يكون تواتر هذه الآيات في الأمة أعظم وأظهر)[1].

وهذا الذي ذكره شيخ الإسلام لايختص بمعجزات نبينا محمد ﷺ، بل هو عام في جميع آيات الأنبياء قبله.

وقد أفاض ابن تيمية ـ رحمه الله ـ في ذكر الطرق التي يُعلم بها أن مرويات دلائل النبوة وأخبارها تفيد العلم، ويمكن تلخيصها في الفقرات التالية:[2]

١ ـ التواتر العام: وهو تناقل الأمة لها جيلاً بعد جيل، وخلفا عن سلف بمختلف طبقاتها.

٢ ـ التواتر الخاص: وهو تواترها عند أهل العلم بالحديث، وقطعُهم بصحتها، وتيقنهم بذلك، وإن كانت قد لاتتواتر وتستفيض عند غيرهم؛ فإن الأخبار قد تتواتر وتستفيض عند قوم دون قوم، بحسب عنايتهم بها وطلبهم لها، وعلمهم بمن أخبر بها، وصفاتهم ومقاديرهم، وما دل من الدلائل على صدقهم.

٣ ـ التواتر المعنوي: حين يسمع الناس أخبارًا متفرقة، بحكايات يشترك

---

(١) الجواب الصحيح: ٦/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧.

(٢) انظر الجواب الصحيح: ٦/ ٣٢٤ ـ ٣٦١.

مجموعها في أمر واحد، فيحصل بمجموع الأخبار علم ضروري بذلك الأمر، وإن كان كل من الأخبار لو تجرد وحده لم يفد العلم، وإن كان كل من الحكايات ليست وحدها منقولة بالتواتر.

٤ ـ اتفاق من حضر هذه الآيات عند نقلها وروايتها وتصديق بعضهم لبعض، رغم كثرتهم الكاثرة، وذلك من غير تواطىء ولاتشاعر، مع ماعرف عنهم من تحري الصدق، وشدة توقي الكذب على رسول الله ﷺ، فاتفاقهم على إقرار ذلك، وعلى تناقله بينهم دون نكير بينهم، يُعلم منه قطعا صحة هذه الآيات عن محمد ﷺ وثبوتها.

٥ ـ مامن صنف من العلماء إلا وقد تواتر عندهم من الآيات مافيه كفاية، كعلماء التفسير، وعلماء الحديث، وعلماء السير والمغازي، والمؤرخين، والفقهاء، وغيرهم.

٦ ـ مصنفات العلماء الكثيرة في ذكر آياته وبراهينه، مثل دلائل النبوة للبيهقي، ولأبي نعيم، ولأبي الشيخ، وللطبراني، ولأبي زُرعة، ولابن أبي الدنيا، وللحربي، وللفريابي، وللمقدسي، وغيرهم.

فمن هذه الطرق التي لخصناها من كلام الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ، نعلم حجية آيات الأنبياء على كل من بلغته بطريق صحيح، فضلاً عمن باشرها، وأن من يقلل من شأن دلالتها، أو لايأبه لها، أو يريد الاستغناء عنها بإعجاز القرآن، أو الاكتفاء بدلالة مضمون الرسالة والدعوة على صدق الرسول، أو غير ذلك من أنواع دلائل النبوة، أنه لايستند إلى دليل، ولاحجة عقلية، ولاسمعية.

بل إن حجيتها قائمة على كل من حصلت له مُكنة العلم بها، ولو لم يحصل له العلم بها فعلاً لتفريط منه، خلافا لما يزعمه بعض المناطقة، من أن المتواترات والمجربات والحدسيات مختصة حجيتها بمن علمها، فلا تكون حجة على غيره، ويجعلون هذا فرقًا بينها وبين

غيرها من القضايا البرهانية، فعلى هذا لاتكون آيات الأنبياء حجة على من لم يحصل عنده التواتر.

وهذا ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ أصل من أصول الإلحاد والكفر، ويقال في الرد على هذا القول: من أراد أن يحصل له العلم فليسمع كما سمع غيره، فإن أعرض، لم يك ذلك مانعا من قيام الحجة عليه، كما قامت على الكفار مع إعراضهم عن سماع القرآن وتدبّره[1].

(١) انظر الرد على المنطقيين: ص٩٢ ـ ١٠٠.

obeikandl.com

المبحث الثالث
دلالة النصرة والعاقبة

كثرت الإشارة في القرآن الكريم إلى دلالة النصرة والعاقبة، وجاء التنبيه إلى أن مايُحس ويشاهد من اطراد العادة بأن ينصر الله ـ تعالى ـ أنبياءه ورسله، ويؤيدهم ويظهرهم على عدوهم بأنواع الظهور، بالسنان وباللسان، ويجعل العاقبة دائما لهم ولأنصارهم وأتباعهم ولو بعد حين، أن هذا من أعظم الآيات الدالة على صدق هؤلاء الرسل، وأنهم لو كانوا يفترون على الله الكذب بدعوى النبوة والرسالة، لامتنع في حكمة الله ـ تعالى ـ أن يؤيدهم وينصرهم، على هذا الوجه المطرد، ولكان ذلك تلبيسًا وإضلالاً عامًا للخلق، يتنزه عنه أرحم الراحمين، وأحكم الحاكمين.

ولاتقتصر هذه الدلالة على النصر الحسي، المتمثل في نجاة الرسل وأتباعهم، وهلاك أعدائهم واستئصالهم، بل هي تشمل إلى جانب ذلك النصر المعنوي، وذلك بظهور حجج الرسل وبراهينهم الدالة على صدقهم؛ فإن هذا من أعظم أنواع النصر، كما تشمل إذلال أعداء الرسل والظهور عليهم وإن لم يُستأصلوا، وهذا كحال المجاهد الذي هزم عدوه، والأول كحال المجاهد الذي قتل عدوه[1].

ولايُعترض على هذا الدليل بأن الكفار قد يتسلطون، وتكون لهم الدولة في كثير من الأحيان، كما كان من شأن فرعون ونمرود وغيرهم من الملوك الكافرين، فإن هؤلاء لم يدّع أحد منهم النبوة والرسالة،

---

(١) انظر النبوات لابن تيمية: ص٤٠ ـ ٤٢.

فالاعتراض بمثلهم ليس واردًا على هذا الدليل أصلاً، أما من يدعي أن الله أرسله إلى الناس، وأمرهم بطاعته واتباعه، فإنه لايخلو من حالين؛ إما أن يكون رسولاً صادقا فينصره الله وأتباعه، ويجعل العاقبه لهم، وإما أن يكون كذّابا مفتريا على الله ـ تعالى ـ، فينتقم الله منه، ويقطع دابره[1].

كما أن ظهور الكفار على المؤمنين أحيانا هو بسبب ذنوبهم، ومخالفتهم لأنبيائهم، كما حصل للمسلمين في أحد، وهذا مما يزيد في الدلالة على صدق النبي ويؤيدها، حيث كان (مدار النصر والظهور ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ مع متابعة النبي وجودًا وعدما، من غير سبب يزاحم ذلك، . . وهذا يوجب العلم بأن المدار علة للدائر: وقولنا: من غير مزاحمة وصف آخر، يزيل النقوض الواردة، فهذا الاستقراء والتتبع يبين أن نصر الله وإظهاره هو بسبب اتباع النبي، وأنه ـ سبحانه ـ يريد إعلاء كلمته ونَصره ونصر أتباعه على من خالفه، . . وهذا يوجب العلم بنبوته . . . وهذا بخلاف الكفار الذين ينتصرون على أهل الكتاب أحيانا؛ فإن أولئك لايقول مطاعهم إني نبي، ولايقاتلون أتباع الأنبياء على دين، ولايطالبون من أولئك أن يتبعوهم على دينهم، بل قد يصرّحون بأنا إنما نُصرنا عليكم بذنوبكم، وأن لو اتبعتم دينكم لم ننصر عليكم، وأيضا فلا عاقبة لهم، بل الله يهلك الظالم بالظالم، ثم يهلك الظالمين جميعا، ولا قتيلهم يطلب بقتله سعادة بعد الموت، ولايختارون القتل ليسعدوا بعد الموت، فهذا وأمثاله مما يظهر به الفرق بين انتصار الأنبياء وأتباعهم وبين ظهور بعض الكفار على المؤمنين، أو ظهور بعضهم على بعض)[2].

---

(١) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ١/٤١٦، ٤١٧.

(٢) الجواب الصحيح: ٦/٤١٦، ٤١٧، [بتصرف يسير].

كما لايجوز أيضا أن يُعترض عليه بأن في الأنبياء من قُتل، كما في قوله ـ تعالى ـ عن بني إسرائيل: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[1] وغيرها من الآيات، فإن (حال هؤلاء [كما يقول شيخ الإسلام] كحال من يُقتل من المؤمنين شهيدًا في الجهاد، ومعلوم أن من كان هذا حاله فهو أكمل ممن يموت حتف أنفه، ثم إن القتل لايتعارض مع حقيقة الانتصار والظهور، فإن الدين الذي قُتل عليه الشهداء ينتصر ويظهر، فتكون لأهله السعادة في الدارين؛ من قتل كان شهيدًا، ومن عاش كان منصورًا سعيدًا، وهذا غاية مايكون من النصر، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَآ إِلَّآ إِحْدَى ٱلْحُسْنَيَيْنِ﴾[2]، فإذا كان هذا قتل المؤمنين، فما الظن بقتل الأنبياء، ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدارين ماهو من أعظم الفلاح)[3].

وهذا النوع من الدلالة الشرعية هو في حقيقته قياس عقلي تمثيلي؛ لأنه مبني على اعتبار الشيء بنظيره، والتسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، كما جاءت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى عند ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب، وكيف أن الله ـ تعالى ـ أخرجهم من ديارهم، وأظهر نبيه عليهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾﴾[4]. وكما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿١٣﴾﴾[5] وذلك بعد قوله: ﴿وَٱللَّهُ

---

(١) سورة البقرة: ٦١.
(٢) سورة براءة: ٥٢.
(٣) الجواب الصحيح: ٦/ ٤١٥، ٤١٦ [بتصرف].
(٤) سورة الحشر: ٢.
(٥) سورة آل عمران: ١٣.

﴿يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وكما في قوله ـ تعالى ـ عن الرسل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[1].

قال شيخ الإسلام: (فالعبرة إنما تكون، بالقياس والتمثيل.. فإذا عُرفت قصص الأنبياء ومن اتبعهم ومن كذّبهم، وأن متبعيهم كان لهم النجاة والعاقبة والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار، جُعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعُلم أن من صدّقهم كان سعيدًا، ومن كذّبهم كان شقيا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول ـ سبحانه ـ في تحقيق عادته وسنته، وأنه لاينقضها ولايبدلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾[2]، يقول: فإذا لم يكونوا خيرًا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم؟ هذا بطريق الاعتبار والقياس، ثم قال: ﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ أي معكم خبر من الله بأنه لايعذبكم؟ فنفى الدليلين العقلي والسمعي)[3].

ووجه الدلالة في هذا النوع من الدلائل على صدق الأنبياء ظاهر، حيث ارتبطت العاقبة بسببها المباشر وعلتها الظاهرة، فالنصر للأنبياء وأتباعهم بسبب صدقهم وإيمانهم، والهلاك للكافرين والانتقام منهم لكفرهم وعنادهم، فهذه الدلالة من جنس دلالة سائر الآيات والمعجزات على صدق الأنبياء، وكما قال شيخ الإسلام: (كون هذا فُعل لأجل هذا وكون ذاك سبب هذا هو مما يعلم بالاضطرار عند تصور الأمر على ماهو عليه، كانقلاب العصا حية عقب سؤال فرعون الآية، وانشقاق القمر عند سؤال مشركي مكة آية، وأمثال ذلك)[4].

---

(١) سورة يوسف: ١١١.
(٢) سورة القمر: ٤٣.
(٣) النبوات: ص٣٧٨، ٣٧٩، بتصرف، وانظر الفتاوى ٣/ ٣٣٢.
(٤) الجواب الصحيح: ٦/ ٣٩٣، وانظر منه: ٦/ ٤١٩ ـ ٤٢١.

بل إن الاستدلال بالعاقبة أبلغ في حصول المقصود من الاستدلال بالمعجزات، وذلك أن الأدلة نوعان:

نوع يدل على مجرد العلم بالمدلول عليه دون ترغيب ولاترهيب، فهو من جنس الخبر المجرد، والمعجزات من هذا النوع، فهي تدل على صدق النبي، ثم يُعلم بعدُ ما يخبر به النبي من الأمر والنهي، والوعد والوعيد.

ونوع يدل على المراد مع الحض فيه أو الرهبة منه، فهو من جنس الحث والطلب والإرادة والأمر بالشيء والنهي عنه، ومن هذا إثبات نبوة الأنبياء بما فعل بهم وبأتباعهم من حسن العاقبة، ومافعل بمكذبيهم من ضد ذلك، وهذه الطريق أبلغ وأكمل، حيث تفيد العلم بصدقهم، وترغب في اتباعهم، وترهب من خلافهم[1].

ومما يؤكد هذا الارتباط والتلازم بين العاقبة وعلّتها ـ والذي يمثل وجه الدلالة في هذا النوع من دلائل النبوة ـ ذلك التميز الموجود في عقوبة أعداء الرسل وإهلاكهم؛ فإنها تكون من جنس لايعذب به إلا من كذب الرسل، وذلك كتغريق فرعون، وإهلاك قوم هود بالريح الصرصر العاتية، وقوم صالح بالصيحة، ونحو ذلك مما يسمى عذاب الاستئصال، والله ـ تعالى ـ قد يميت الناس ويهلكهم بأنواع معتادة من البأس، كأنواع الطواعين والأوبئة، لكن هذا معتاد لغير مكذب الرسل، أما ما عذب الله به مكذبي الرسل فهو خاص لهم، ولهذا كان من آيات الله الدالة على صدق أنبيائه[2].

ولعل مما يشهد لهذا قوله ـ تعالى ـ لبني إسرائيل ـ لما سألوا عيسى ـ عليه السلام ـ أن ينزّل عليهم مائدة من السماء ـ: ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا

---

(١) انظر المرجع السابق: ٦/ ٤٢٦، ٤٢٧.

(٢) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٥٤.

عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾[1].

وأما طريق العلم بهذه الدلالة فإنه على ثلاث حالات[2]:

إما ان يكون بالبصر، أو بالسمع، أو بهما معا:

فأما البصر والمشاهدة فلمن رأى وعاين بنفسه، كيف نصر الله ـ تعالى ـ أنبياءه وأهلك أعداءه، وهذا كحال بني إسرائيل إذ قال الله لهم: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَٰكُمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٠﴾﴾[3].

وكحال من رأى من أهل مكة وغيرهم ما أوقعه الله ـ تعالى ـ بأصحاب الفيل، ويلحق بهذا من رأى وشاهد آثار المهلكين، ووقف عليها وأحسها، فإن حراسة الكعبة شهادة لملّة إبراهيم، وإرهاص لمبعث خاتم المرسلين، عليهما ـ الصلاة والسلام ـ.

وأما طريق السمع فيكون بمعرفة الأخبار التي تفيد العلم، كتواتر الأخبار بقصة موسى مع فرعون، وقصة إبراهيم مع النمرود، وقصة نوح والطوفان، وأمثال ذلك من الأخبار المتواترة عند أهل الملل وغيرهم.

وأما اشتراك السمع والبصر معًا، فكأن تشاهد آثار السابقين، كديار ثمود، ويُعلم بالخبر تفصيل ما حصل لهم، وكأن يُعتبر بما كان على مثال السابق، ويُعلم بالخبر مافي ذلك من الذكرى، كحال سفينة نوح، التي قال الله فيها: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾﴾[4]، وقال ـ تعالى ـ: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾﴾[5]، فإن مشاهدة السفن

---

(١) سورة المائدة: ١١٥.

(٢) انظر شرح الأصفهانية: ص١٠٢، ١٠٣، والنبوات له: ص١٦٣، ١٦٤.

(٣) سورة البقرة: ٥٠.

(٤) سورة يس: ٤١، ٤٢.

(٥) سورة الحاقة: ١١، ١٢.

بعدها يذكر بها، وبما جرى من خبرها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية:

(وبالجملة فالعلم بأنه كان في الأرض من يقول بأنهم رسل الله، وأن أقواما اتبعوهم، وأن أقواما خالفوهم، وأن الله نصر الرسل والمؤمنين، وجعل العاقبة لهم، وعاقب أعداءهم؛ هو من أظهر العلوم المتواترة وأجلاها، ونقل هذه الأمور أظهر وأوضح من نقل أخبار ملوك الفرس والعرب في جاهليتها، وأخبار اليونان وعلماء الطب والنجوم والفلسفة اليونانية...، فكل عاقل يعلم أن نقل أخبار الأنبياء وأتباعهم ينقلها من أهل الملل من لايحصى عدده إلا الله، ويدونونها في الكتب، وأهلها من أعظم الناس تدينا بوجوب الصدق وتحريم الكذب، ففي العادة المشتركة بينهم وبين سائر بني آدم مايمنع اتفاقهم وتواطأهم على الكذب، بل مايمنع اتفاقهم على كتمان ماتتوفر الهمم والدواعي على نقله)[1].

ولظهور دلالة هذا النوع على النبوة لم يكن فضل من كان إيمانه صادرًا من جهته كفضل من آمن بالرسالة قبل الظهور والنصرة؛ فإن هؤلاء قد استخدموا بصائرهم، وخضعوا للحق من أول أمره[2].

وإذ قد أبنّا فيما سبق حقيقة هذا النوع من دلائل النبوة، ووجه دلالته عليها وطرق معرفته، وماقد يرد عليه من اعتراضات، وتفنيدها، فلنلق نظرة فيما يلي على بعض الإشارات القرآنية إلى هذا الدليل:

١ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾﴾[3]. قال ابن القيم: (أي: قد كان من قبلكم أمم أمثالكم، فانظروا إلى عواقبهم السيئة، واعلموا أن سبب

---

(١) شرح الأصفهانية: ص١٠٣، وانظر النبوات له: ص٣٧.

(٢) انظر مفتاح دار السعادة لابن القيم: ٢/ ١٣.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٧.

ذلك ماكان من تكذيب بآيات الله ورسله، وهم الأصل وأنتم الفرع، والعلة الجامعة: التكذيب، والحكم: بالهلاك)[1].

وقد جاء في هذه الآية الأمر بالسير في الأرض، وهذا يكون حسيا ومعنويا: حسيا في حق من أراد معاينة ذلك، فإذا لم يكن يراه ببلده فليذهب لينظر إليه حيث كان، ومعنويا بالتأمل في أخبار من غبر، وتذكر آثارهم، والاعتبار ممايقوم بالقلب من مشاهد مصارعهم، وبقايا مساكنهم، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوٓاْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾[2].

٢ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ ﴿٦﴾﴾[3]، قال ابن القيم: (فذكر ـ سبحانه ـ إهلاك من قبلنا من القرون، وبين أن ذلك كان لمعنى القياس، وهو ذنوبهم، فهم الأصل، ونحن الفرع، والذنوب: العلة الجامعة، والحكم: الهلاك، فهذا محض قياس العلة، وقد أكده ـ سبحانه ـ بضرب من الأولى، وهو أن من قبلنا كانوا أقوى منا، فلم تدفع عنهم قوتهم وشدتهم ماحل بهم)[4].

٣ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[5]، فقد ذكر المفسرون أن المراد بذلك ماكان من فتوح

---

(١) إعلام الموقعين: ١/ ١٨١.
(٢) سورة النمل: ٥٢، ٥٣.
(٣) سورة الأنعام: ٦.
(٤) إعلام الموقعين: ١/ ١٨٢.
(٥) سورة فصلت: ٥٣.

الإسلام الخارقة، وفسروا الآفاق بأنها بلاد العجم، وفسروا قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ ﴾ بأن المراد بلاد العرب[1].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ۝٤٧ ﴾[2].

وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗاۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخۡتِمۡ عَلَىٰ قَلۡبِكَۗ وَيَمۡحُ ٱللَّهُ ٱلۡبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓۚ ﴾[3].

ومافي معناه من الآيات الدالة على أن الله ـ تعالى ـ ماكان لينصر نبيّه ويؤيده بأنواع الظهور والتمكين لو كان متقولاً عليه مفتريا، وقد ذكر في الآية الأولى أنه لو تقول بعض الأقاويل لأهلكه، فكيف لو كان متقولاً الرسالة كلها؟[4].

قال ابن تيمية معلقا على الآية الثانية:

(فمحوه للباطل وإحقاقه الحق خبر منه لابد أن يفعله. فإنه إذا أنزل كلماته دل بها على أنه نبي صادق، إذ كانت آية له، ويبين بها الحق من الباطل، وهو أيضا يحق الحق ويبطل الباطل بكلماته التي تكون بهاالأشياء، فيحق الحق بما يظهره من الآيات، وماينصر به أهل الحق كما تقدمت كلمته بذلك، كما قال: ﴿ وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ۝١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ۝١٧٣ ﴾[5])[6].

٥ ـ قال ـ تعالى ـ على لسان شعيب ـ عليه السلام ـ: ﴿ وَيَٰقَوۡمِ لَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ

---

(١) انظر الكشاف: ٣/ ٣٩٥، وتفسير الطبري: ٢٥/ ٥.
(٢) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.
(٣) سورة الشورى: ٢٤.
(٤) انظر النبوات لابن تيمية: ص٣٤٥.
(٥) سورة الصافات: ١٧١ ـ ١٧٣.
(٦) النبوات: ص٣٤٦.

شِقَاقِيٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾[1]، ونحوه في قول مؤمن آل فرعون: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾[2]، فهذا الخطاب وإن خرج مخرج الوعظ والتذكير، إلا أنه استدلال عقلي على صدق الأنبياء بدلالة العاقبة الحسنة لهم، والسيئة لأعدائهم، على نحو ماتقدم، وهو مع ذلك وجداني يحمل أسلوب الترغيب والترهيب.

٦ ـ قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾﴾[3]، فإن جعْل الإنجاء ظرفا لكونه من المرسلين إشارةٌ إلى مافي هذا الإنجاء من الدلالة على صدقه وتأييد الله له، قال ابن عاشور: (وإنما خُصّ حينُ إنجائه بجعله ظرفا للكون من المرسلين؛ لأن ذلك الوقت ظرف للأحوال الدالة على رسالته، إذ هي مماثلة لأحوال الرسل من قبل ومن بعد)[4].

٧ ـ ومن لطيف الإشارات القرآنية إلى هذه الدلالة قول مؤمن آل فرعون عن موسى ـ عليه السلام ـ: ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[5].

فكأنه قال لهم: (أقل مايكون في صدقه أن يصيبكم بعض الذي يعدكم، وفي بعض ذلك هلاككم)[6]. ومفهوم ذلك أنه إذا أصابهم بعض مايعدهم من الهلاك، كان برهانًا على صدقه، فكيف إذا أصابهم

---

(١) سورة هود: ٨٩.
(٢) سورة غافر: ٣٠، ٣١.
(٣) سورة الصافات: ١٣٣، ١٣٤.
(٤) التحرير والتنوير: ٢٣/ ١٧١.
(٥) سورة غافر: ٢٨.
(٦) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج: ٤/ ٣٧٢.

كل مايعدهم، وهو الواقع فعلاً، كما عُلم من عاقبة فرعون وجنوده، قال ـ تعالى ـ: ﴿ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[1]. لكن ينبغي التنبيه هنا إلى أن هذه الدلالة العقلية إنما تمت بعد حصول التغريق لفرعون، وقبل ذلك كانت من مؤمن آل فرعون على سبيل الوعظ والجدل، أما البراهين التي احتج بها عليهم قبل ذلك ـ وهي آيات موسى ـ فقد نبه إليها بقوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ﴾[2].

(١) سورة القصص: ٤٠.
(٢) سورة غافر: ٢٨.

obeikandl.com

المبحث الرابع
دلالة الأحوال والأوصاف

لايخفى أن ما مرّ ذكره من أنواع دلائل النبوة داخل في أحوال الرسل، إلا أن المقصود هنا تلك الدلالة المستقلة التي يجدها الناظر في مجموع أحوال نبيٍّ من الأنبياء وصفاته، وخصوصا خاتمهم ـ عليهم السلام [1] ـ، فإن الناظر عندما يتحقق من أحواله وصفاته على ماهي عليه دون تشويه، أو افتراء، أو تزييف، مع تجرده من الهوى، والتعصب يقطع بعقله أن من هذا حاله ووصفه لايمكن أن يكون كذابا، ويوقن بأنه صادق فيما يدعيه من إرسال الله له، ونزول الوحي عليه، بل إنه يعلم يقينا أنه يمتنع عليه ـ وهذا حاله ـ أن يكون مجنونا، أو ذا صرع، وتخيلات، ومنامات باطلة، أو غير ذلك مما يفتريه أعداء الله على رسوله، ويجعلونه تفسيرًا لظاهرة الوحي.

وتحصيل هذه الدلالة يكون بالتأمل الشامل في أحوال الرسول وصفاته الخُلقيه، منذ ولادته وحتى وفاته، بل يتبع ذلك التأمل في حال أمته من بعده.

وطريق ذلك: النظر فيما تواتر وقُطع بصحته من سيرته وأخباره، التي تناقلها الناس جيلاً بعد جيل، ودوّنها العلماء واعتنوا بحفظها وروايتها.

وقد جاء في القرآن التنبيه على هذه الدلالة المهمّة جملة وتفصيلاً،

---

(١) لأنا نعلم من أحواله وصفاته ـ عليه الصلاة والسلام ـ مالم يتهيأ لغيره من الأنبياء، وإن كان ماتواتر عنهم من ذلك كاف في استقلال هذه الدلالة لهم.

من ذلك دلالة مجمل أحوال الرسول وصفاته على صدقه، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[1]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[3]، وغيرها من الآيات. ومن ذلك دلالة أحواله تفصيلاً، وأن من اتصف بهذا الوصف وكان هذا حاله يمتنع أن يكون كاذبا مفتريا على الله. وسيأتي ذكر الأمثلة ـ إن شاء الله تعالى ـ.

يقول ابن الوزير منبها على حجية هذا النوع من دلائل النبوة واستقلاله عن غيره، في تعليق له على الآيات التي مرّ ذكرها.

(. . لافرق بالنظر إلى دليل المعجز بين أن يكون النبي ﷺ كان يتلو مِن قبله كتابا ويخطه بيمينه أو لا، وبين أن يكون لبث فيهم عمرا من قبله أو لا، إذ فعل المعجز يتعذر على من قرأ قبله كتابا وخطه، وعلى من لم يلبث فيهم عمرًا، كما يتعذر على من لم يكن كذلك، فلما فرق الله بين الحالتين ـ حتى أُثبتت الريبة في إحداهما دون الأخرى، وحتى وبخهم بقوله: (أفلا تعقلون) حين لم يصدِّقوا من لبث فيهم عمرًا كثيرًا لم يأت بشيء من القرآن، ولاجرى على لسانه ذكر النبوة، ثم جاء بذلك بعدما مضى أكثرُ عمره، علمنا أنه ـ تعالى ـ احتج عليهم في هاتين الآيتين بالقرائن التي تفيد العلم، إذ لو لم يحتجّ بها لما كان لهما معنى، ولكان إفحام الرسول حين جاء بهما ممكنا،

---

(١) سورة سبأ: ٤٦.

(٢) سورة الأعراف: ١٨٤.

(٣) سورة يونس: ١٦.

وذلك لايجوز)[1].

وقد نبه ابن الوزير إلى كثير من قرائن الأحوال الدالة بمجموعها على صدق النبوة، نشير إليها فيما يلي باختصار:

١ ـ أن الرسل من أعدل الناس طريقة، وأصدقهم لهجة، وأكثرهم وقارًا، وأوسطهم من ناحية الصفات الخُلقية.

٢ ـ معاداتهم لقراباتهم وأرحامهم الذين جُبلت الطباع على محبتهم.

٣ ـ أنهم فقراء مساكين[2]، تقتحمهم العيون، ولايؤبه لهم عند أعداء الله، ومع ذلك تجدهم رابطي الجأش، قلوبهم راسية رسو الجبال، مطمئنة واثقة بنصر الله.

٤ ـ حصول أغراضهم، وكون العاقبة لهم ولأتباعهم على اعدائهم.

٥ ـ زهدهم في الدنيا، وإقبالهم على الآخرة.

٦ ـ عدم تغير طريقتهم في الزهد والإقبال على الآخرة؛ إذا تمكنوا من الدنيا.

٧ ـ إجماعهم وعدم اختلافهم في دعوتهم مع عدم تواطئهم.

٨ ـ عجز أعدائهم عن إثبات كذبة واحدة في أي مما قالوا به وأخبروا به[3].

---

(١) البرهان القاطع: ص٨٥، ٨٦، وانظر مابعدها؛ فقد أسهب ابن الوزير في تقرير دلالة قرائن الأحوال عقلاً، وغنيتها عن المعجزة، فراجعه فإنه مهم.

(٢) في مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٨٤) عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال عن لوط ـ عليه السلام ـ: «فما بُعث بعده نبي إلا في ثروة من قومه»، وأورده الألباني في الصحيحة برقم (١٨٦٧)، وفُسّر قوله: (في ثروة) بالعدد الكثير، انظر الفتح الرباني للبنا: ١٨/ ١٧٩.

(٣) انظر البرهان القاطع لابن الوزير من أوله. وانظر نحوًا من هذا لابن تيمية في شرح الأصفهانية: ص١٠٤، ١٠٥.

هذا قليل من كثير من الأوصاف والأحوال المقارنة للأنبياء؛ منها ماهو في خَلْقهم، ومنها ماهو في خُلُقهم؛ منها ماهو فيهم، ومنها ماهو في أتباعهم؛ منها ماهو في أقوالهم، ومنها ماهو في أفعالهم، وكلها تدل بداهة على صدقهم، كما قال عبدالله ابن رواحة في النبي ﷺ:

لو لم تكن فيه آيات مبينة كانت بداهته تنبيك بالخبر[1]

وكما قال عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ فيما رواه الإمام أحمد بسنده: « فلما رأيته عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب»[2].

ورُوي عن كعب الأحبار عند تفسير قوله ـ تعالى ـ: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[3] أنه قال: يكاد نور محمد وأمره يتبين للناس ولو لم يتكلم أنه نبي، كما يكاد ذلك الزيت يضيء ولو لم تمسسه نار[4].

وقد ذكر الله ـ تعالى ـ بعضًا من أحوال الأنبياء وصفاتهم الدالة على صدقهم، فمن ذلك:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ في حق خاتم الأنبياء ـ عليه الصلاة والسلام ـ: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾[5]، فبين أن كونه أميا لايقرأ ولايكتب مانع من حصول الريبة في نبوته.

---

(١) انظر الروض الأُنُف للسهيلي: ٣/ ١٥٣، تحقيق عبدالرحمن الوكيل.

(٢) المسند: ٥/ ٤٥١.

(٣) سورة النور: ٣٥.

(٤) رواه ابن جرير في تفسيره: ١٨/ ١٣٧، وشاهدنا هنا قول كعب الأحبار، دون تفسيره للآية بذلك.

(٥) سورة العنكبوت: ٤٨.

يقول ابن تيمية: (يبين ـ سبحانه ـ مِن حاله مايعلمه العامة والخاصة، وهو معلوم لجميع قومه الذين شاهدوه، فتواتر عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس، أنه كان أميا لايقرأ كتابا، ولايحفظ كتابا من الكتب، لا المنزّلة ولا غيرها، ولا يقرأ شيئا مكتوبا، لا كتابا منزلاً ولا غيره، ولايكتب بيمينه كتابا، ولاينسخ شيئا من كتب الناس، المنزلة ولاغيرها.

ومعلوم أن من يعلَّم من غيره إما أن يأخذ تلقينا وحفظا، وإما أن يأخذ من كتاب، وهو لم يكن يقرأ شيئا من الكتب من حفظه، ولايقرأ مكتوبا، والذي يأخذ من كتاب غيره، إما أن يقرأه، وإما أن ينسخه، وهو لم يكن يقرأ ولاينسخ)[1].

٢ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾[2]، فجعل عدم سؤالهم الأجر من الناس مع اهتدائهم موجِبًا لاتباعهم.

٣ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾ ﴾[3]، قال ابن القيم معلقا عليها: (فدعاهم ـ سبحانه ـ الى تدبر القول، وتأمل حال القائل؛ فإن كون القول [للشيء][4] كذبا وزورا يُعلم من نفس القول تارة، وتناقضه واضطرابه، وظهور شواهد الكذب عليه، فالكذب بادٍ على صفحاته، وبادٍ على ظاهره وباطنه، ويعرف من حال القائل تارة، فإن المعروف بالكذب والفجور والمكر والخداع لاتكون أقواله إلا مناسبة لأفعاله، ولايتأتى منه من القول والفعل مايتأتى من البار الصادق المبرّأ من كل

---

(١) الجواب الصحيح: ٥/٣٣٨، ٣٣٩، وانظر الفتاوى له: ١٦/٢٦٦.

(٢) سورة يس: ٢١.

(٣) سورة المؤمنون: ٦٨، ٦٩.

(٤) يبدو أن هذه الكلمة زائدة.

فاحشة، وغدر، وكذب، وفجور، بل قلب هذا وقصده، وقوله، وعمله يشبه بعضه بعضا، وقلب ذلك، وقوله، وعمله، وقصده يشبه بعضه بعضا، فدعاهم ـ سبحانه ـ إلى تدبر القول، وتأمل سيرة القائل وأحواله، وحينئذ تبين لهم حقيقة الأمر، وأن ما جاء به من أعلى مراتب الصدق)[1].

٤ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾﴾[2].

فأنكر عليهم أنهم لايعقلون هذه الحجة الظاهرة على صدقه، وهي أنه قد أمضى جل عمره فيهم دون خوضٍ في شيء من أمر النبوة، ثم إذا به يخوض دفعة واحدة في أمر النبوة ومايتبعها من الخبر عن الله ـ تعالى ـ وصفاته، وأحكامه، وملائكته، وجنته، وناره، وغير ذلك من العلوم الإلـٰهية. فكيف يكون ذلك من متنبيء كاذب، أو معلَّم مجنون[3].

ومن كلام ابن القيم في تعليق له على هذه الآية:

(الحجة الثانية: أنى قد لبثت فيكم عمري إلى حين أتيتكم به، وأنتم تشاهدوني، وتعرفون حالي، وتصحبوني حضرًا وسفرا، وتعرفون دقيق أمري وجليله، وتحققون سيرتي، هل كانت سيرة من هو من أكذب الخلق وأفجرهم وأظلمهم؟ فإنه لا أكذب ولا أظلم ولا أقبح سيرةً ممن جاهر ربّه وخالقه بالكذب والفرية عليه، وطلب إفساد العالم، وظلم النفوس، والبغي في الأرض بغير الحق.

هذا وأنتم تعلمون أني لم أكن أقرأ كتابا، ولا أخط بيميني، ولا

---

(١) الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٦٩، ٤٧٠.

(٢) سورة يونس: ١٦.

(٣) انظر البرهان القاطع لابن الوزير: ص٩٦، وانظر للأهمية تعليق ابن تيمية على هذه الآية في الجواب الصحيح: ٥/ ٣٣٤، ٣٣٥.

صاحبت من أتعلم منه، بل صحبتكم في أسفاركم لمن تتعلمون منه، وتسألونه عن أخبار الأمم والملوك وغيرها، مالم[1] أشاركْكم فيه بوجه، ثم جئتكم بهذا النبأ العظيم، الذي فيه علم الأولين والآخرين، وعلم ماكان وماسيكون على التفصيل، فأي برهان أوضح من هذا؟ وأي عبارة أفصح وأوجز من هذه العبارة المتضمنة له)[2].

٥ ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿١٨٤﴾ ﴾[3]، فأنكر عليهم عدم تفكرهم في حاله، وتوصلِهم بذلك إلى الحكم بصدقه، وأنه لايمكن أن يخفى عليهم، فهو صاحبهم الذي يعرفونه، وقد لبث فيهم عمرا طويلاً قبل أن يفجأهم بهذا الأمر، فهل يعرفون من حاله جنونًا، أو صرعًا، أو كذبًا، أو خيانةً، أو غير ذلك من موانع النبوة، لاحكم للعقل المتجرد بعد النظر في أحواله إلا أن يقطع بأنه نبي صادق مرسل من الله، منذر من عذابه الشديد، ظاهر الحال غير خافيه، بيّن الحجة، مبيّن لما أرسل به.

٦ ـ روى البخاري ومسلم عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ في حديث بدء الوحي إلى النبي ـ ﷺ ـ أنه لما رجع من غار حراء، ترجف بوادره، قال لخديجة: «أي خديجة، مالي، لقد خشيت على نفسي» فأخبرها الخبر، قالت خديجة: كلا، أبشر، فوالله لايخزيك الله أبدًا، فوالله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتَقري الضيف، وتعين على نوائب الحق[4].

---

(١) هكذا في المطبوع، ويظهر لي أن صوابها: (فلم)، حتى يستقيم المعنى.

(٢) الصواعق المرسلة: ٢/ ٤٧٠ ـ ٤٧٢.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٤.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير باب تفسير سورة العلق، (٤/ ١٨٩٤)، حديث رقم: (٤٦٧٠)، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، ١/ ١٢٦، حديث رقم: (١٦٠).

يقول ابن تيمية معلقا:

(فهو لم يَخَفْ من تعمد الكذب؛ فإنه يعلم من نفسه أنه لم يكذب، لكن خاف في أول الأمر أن يكون قد عرض له عارض سوء، فذكرت خديجة ماينفي هذا، وهو ماكان مجبولاً عليه من مكارم الأخلاق، ومحاسن الشيم والأعمال، وهو الصدق المستلزم للعدل، والإحسان إلى الخلق، ومن اجتمع فيه الصدق والعدل والإحسان، لم يكن ممن يُخزيه الله، كما هو معلوم من سنة الله ـ تعالى ـ)[1].

٧ ـ قوله ـ تعالى ـ عن هود: ﴿إِنِّيٓ أُشۡهِدُ ٱللَّهَ وَٱشۡهَدُوٓاْ أَنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٥٤ مِن دُونِهِۦۖ فَكِيدُونِي جَمِيعٗا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ٥٥ إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۡ﴾[2]، ونحوها عن نوح: ﴿ثُمَّ ٱقۡضُوٓاْ إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ٧١﴾[3]، ولنبينا ﷺ: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ شُرَكَآءَكُمۡ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ١٩٥﴾[4]، فهذا من أعظم الآيات: أن رجلاً واحدًا يخاطب أمة عظيمة بهذا الخطاب غير جزع ولافزع ولاخوار، بل هو واثق بما قاله، جازم به[5].

٨ ـ ومن أعظم الأمثلة على هذا النوع من دلائل النبوة: ما جاء في قصة هرقل مع أبي سفيان، التي رواها الشيخان عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ، وفيها أن هرقل ألقى على أبي سفيان أحد عشر سؤالاً، تتناول أحوال وصفات النبي ﷺ، وبعد أن عرف هرقل جوابها من أبي سفيان، بنى على ذلك ثبوت النبوة المحمدية، وأن من هذا حاله لايمكن أن يكون كاذبا وهي:

---

(١) شرح الأصفهانية: ص٩٣ [بتصرف] وانظر النبوات له: ص٣٥٣.
(٢) سورة هود: ٥٤، ٥٥.
(٣) سورة يونس: ٧١.
(٤) سورة الأعراف: ١٩٥.
(٥) انظر مدارج السالكين لابن القيم: ٣/ ٤٦٥.

كيف نسبه فيكم؟ قال أبو سفيان: قلت: هو فينا ذو نسب.

ثم قال: هل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا.

قال: هل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا.

قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قلت: بل ضعفاؤهم.

قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون.

قال: هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا.

قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا.

قال: هل يغدر؟ قلت: لا.

قال: هل قاتلتموه؟ قلت: نعم.

قال: كيف قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه.

قال: ماذا يأمركم؟ قلت: يقول اعبدوا الله وحده ولاتشركوا به شيئا، واتركوا مايقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة.

ثم أبان هرقل بعد ذلك لأبي سفيان وجه دلالة هذه المعلومات المهمة عن أحوال النبي وصفاته على صدق نبوته، فقال له:

(سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تُبعث في نسب قومها.

وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلتُ لو كان أحد قال هذا قبله لقلت: رجل يأتسي بقول قيل قبله.

وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت: رجل يطلب ملك أبيه.

وسألتك: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟

فذكرت: أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله.

وسألتك: أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل.

وسألتك: أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم.

وسألتك: أيرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت: أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب.

وسألتك: هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لاتغدر.

وسألتك: بما يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولاتُشركوا به شيئا، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ماتقول حقا فسيملك موضع قدمي هاتين)[1].

---

(١) انظر صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ (١/ ٧، ٨)، حديث (٧). وصحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كتاب النبي إلى هرقل، (٣/ ١١١٧)، حديث: (١٧٧٣).

المبحث الخامس
دلالة مضمون الرسالة

تتوجه دلالة مضمون الرسالة على صدق صاحبها من طريقين:

الأول ـ موافقته للرسالات السابقة.

ويسمى هذا النوع من دلائل النبوة: المسلك النوعي، حيث يُسلك في الاستدلال هنا لصدق النبوة؛ طريقُ التأمل في أقوال النبي وهديه ومايدعو إليه، ومدى موافقة ذلك لمن سبقه من الأنبياء، وقد عُلم بالتواتر أن دعوتهم واحدة، وأنهم متفقون في أصول مايدعون إليه من شرائع الإيمان والإسلام، فبالمقارنة بين أحدهم، وبين سائرهم؛ يظهر صدقه من موافقته لهم.

يقول ابن تيمية: (النبوة في الآدميين هي من عهد آدم؛ فإنه كان نبيا، وكان بنوه يعلمون نبوته وأحواله بالاضطرار، وقد عُلم جنس مايدعو إليه الرسل، وجنس أحوالهم، فالمدعى للرسالة في زمن الإمكان إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل عُلم أنه ليس منهم، وإذا أتى بما هو من خصائص الرسل عُلم أنه منهم، لاسيما إذا علم أنه لابد من رسول منتظر، وعُلم أن لذلك الرسول صفات تميزه عمن سواه)[1].

ولاشك أن هذا النوع من الدلائل على النبوة يكون أقوى كلما كثر أفراد الأنبياء؛ لأن في كثرتهم تأكيدًا على أصولهم التي أجمعوا عليها، فمتى ماوافقهم بعدُ نبيٌّ من الأنبياء في دعوتهم كان ذلك أقوى في الدلالة على صدقه، وذلك بخلاف أوائل الأنبياء كنوح ـ عليه

---

(١) شرح الأصفهانية: ص٩٣.

السلام ـ، فإنه غير مسبوق بنظير له في دعوته المشركين إلى الإسلام، فتكون موافقته له وتصديقه له آية على صدقه، وبهذا يُعلم أن أعظم الأنبياء حظا من هذه الدلالة هو خاتمهم ـ عليه أفضل الصلاة والتسليم ـ.

ومما ينبغي أن يعلم أن هذا النوع من دلائل النبوة إنما يتأكد في حق من أقر بجنس الأنبياء والمرسلين، كأهل الكتاب؛ لأنهم قد عرفوا دعوة الرسل، وأقروا بجنس الإرسال، أما من أنكر جنس الرسالة، كقوم نوح وعاد وثمود، وكبعض مشركي العرب، فإن الحال يكون مختلفًا بالنسبة لهم، ولذلك أخبر الله ـ تعالى ـ عنهم بأنهم كذبوا المرسلين، مع أن كلا منهم إنما جاءه رسول واحد، لكن لما كان تكذيبهم إياه غير خاص به، بل هو تكذيب لجنس الإرسال، كانوا مكذبين للرسل جميعا[1].

فهؤلاء أحيلوا في جواب شبههم في إنكار جنس الرسالة، كقولهم فيما حكاه الله: ﴿أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾﴾[2] على أهل الكتاب الذين قد تواتر عندهم خبر الرسل، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَۙ ﴿٤٣﴾﴾[3]. يقول الإمام ابن تيمية:

(فكان علمهم بثبوت معين من هذا النوع يوجب العلم بقضية مطلقة، وهو أن هذا النوع موجود، بخلاف ما إذا أُثبت ذلك ابتداءً بلا وجود نظير؛ فإنه يكون أصعب، وإن كان ممكنا)[4].

والمقصود أن هؤلاء يُسلك بهم طرق أخرى لإثبات الإرسال من

---

(١) انظر سورة الشعراء: الآيات ١٠٥، ١٢٣، ١٤١، ١٦٠، ١٧٦.
(٢) سورة الإسراء: ٩٤.
(٣) سورة النحل: ٤٣.
(٤) الرد على المنطقيين: ص٣٧٠.

أصله، وتقرير جنس النبوة أولاً، وهكذا كانت طريقة القرآن مع هؤلاء، كما في قوله ـ تعالى ـ حكاية عن نوح: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ﴾[1]، وكما قال في حق محمد ﷺ: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ﴾[2]، أما أهل الكتاب فمحجوجون بأعظم حجة، حيث كان ما جاء به محمد ﷺ مصدقًا لما معهم موافقًا له، وكان كفرهم به لأحد سببين، إما الجهل بما جاء به، وهذا هو الغالب على عامتهم، وإما العناد والاستكبار، وهذا حال أهل الرياسة الدينية منهم. وأما العرب؛ فإنهم بعدما أقروا بجنس الأنبياء لم يبق لديهم أي شك في نبوة محمد ﷺ إذ كانت من هذا الجنس[3].

ويقول ابن تيمية: (ومن المعلوم أن موسى كان قبل محمد ـ صلوات الله عليهما وسلامه ـ، ولم يأخذ عنه شيئا، وكل من عرف حال محمد ﷺ يعلم أنه لم يأخذ عن أهل الكتاب شيئا، فإذا أخبر هذا بمثل ما أخبر به هذا عن مُرسِل واحد من غير تواطؤ ولاتشاعر ـ فيما يمتنع في العادة التوافق فيه من غير تواطؤ ـ كان هذا ممايدل على صدق كل من الرسولين في أصل الرسالة، وعلى صدق خبر كل من الرسولين فيما أخبر به من صفات ربه، إذ كان كل منهما أخبر بمثل ما أخبر به الآخر)[4].

وكذلك الأمر بالنسبة لسائر الأنبياء والمرسلين، فإنهم قد تميزوا بهذه الخاصية العظيمة، ألا وهي تصديق بعضهم لبعض، كما قال ـ تعالى ـ عن نبينا ﷺ: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾[5]، في حين

---

(١) سورة الأعراف: ٦٣، ونحوها عن هود في سورة هود: ٦٩.

(٢) سورة يونس: ٢.

(٣) انظر النبوات لابن تيمية: ص٣٩.

(٤) درء تعارض العقل والنقل: ٧٨/٥، وانظر شرح الأصفهانية له: ص١٥٣، ١٥٤.

(٥) سورة الصافات: ٣٧.

أن حال أعداء الأنبياء من السحرة والكهنة وأضرابهم معاكس لهذا تماما، فهم لاينفكون من وقوع التخالف والعداوة فيما بينهم، والتضاد بين مايدعوا إليه كل منهم، وكذلك الحال بالنسبة لأتباع كل من الفريقين[1].

أما النصوص التي تنبه إلى هذا النوع من دلائل النبوة فمتوافرة، ومن أظهرها:

١ ـ قوله ـ تعالى ـ لنبينا ﷺ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ﴾[2]، وكذلك سائر الآيات التي تقرر وقوع الإرسال قبل محمد ﷺ، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾[3]، وقوله: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ﴾[4]، وقوله: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾[5]، وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٣﴾[6]، وغيرها كثير.

قال الشنقيطي عند آية الأحقاف: (ومعنى الآية: قل لهم يانبي الله ماكنت أول رسول أرسل إلى البشر، بل قد أرسل الله قبلي جميع الرسل إلى البشر، فلا وجه لاستبعادكم رسالتي واستنكاركم إياها؛ لأن الله أرسل قبلي رسلاً كثيرة)[7].

٢ ـ قصة النجاشي مع المهاجرين إلى الحبشة، وفيها أنه طلب من جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه، وكان على رأسهم ـ أن يقرأ عليه شيئا من القرآن، فقرأ عليه أول سورة مريم، فبكى النجاشي

---

(١) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٦٥، ١٦٦.
(٢) سورة الأحقاف: ٩.
(٣) سورة الرعد: ٣٨، وغافر: ٧٨.
(٤) سورة النساء: ١٦٣.
(٥) سورة فصلت: ٤٣.
(٦) سورة الشورى: ٣.
(٧) أضواء البيان: ٧/ ٣٧٧.

حتى أخضل لحيته وبكت أساقفته، ثم قال: إن هذا الكلام ليخرج من المشكاة التي جاء بها موسى، انطلقوا راشدين[1]. فالنجاشي في هذه القصة استدل على صحة نبوة محمد ﷺ، بما رأى من التوافق التام بين دعوته ودعوة موسى ـ عليه السلام ـ، عرف ذلك مما سمعه من القرآن، مع أنه لم يسمع منه إلا القليل، لكن لما كانت موانع قبول الحق زائلة في حقه، عرف الحق وخضع له، وكان من المؤمنين، ولما مات صلى عليه النبي ﷺ صلاة الغائب[2]، ـ رضي الله عنه ورحمه ـ، كما أن في العرض الحكيم لدعوة الإسلام الذي قام به جعفر ـ رضي الله عنه ـ أمام النجاشي وأساقفته مايؤكد انتماء هذه الدعوة لجنس دعوة الأنبياء والمرسلين، فلا عجب ألا يتردد النجاشي في الإيمان وقبول دعوة الحق.

٣ ـ شهادة ورقة بن نوفل ـ رضي الله عنه ـ بأن ما رآه النبي ﷺ في غار حراء إنما هو الناموس الذي كان يأتي موسى ـ عليه السلام ـ، كما ثبت ذلك في الصحيحين[3]. فورقة عرف من وصف النبي ﷺ لحاله مع الملَك، وماجرى له في الغار، ومما قال له الملك ـ إضافة الى ما عرفه سابقا عن محمد ﷺ من كمال بشري ـ أن ماجاءه إنما هو وحي من الله، من جنس ماكان يأتي موسى ـ عليه السلام ـ.

---

(١) انظر سيرة ابن هشام: ١/ ٢٨٩ ـ ٢٩٣، وقد حسن إسناد القصة الدكتور أكرم العمري في السيرة النبوية الصحيحة: ١/ ١٧٤.

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب التكبير على الجنازة أربعًا، ١/ ٤٤٧، برقم (١٢٦٨) ومسلم، كتاب الجنائز، باب في التكبير على الجنازة، ٢/ ٥٤٧، برقم (٩٥٢) (٩٥٣).

(٣) راجع تخريجه فيما سبق: ص٥١١، حاشية (٤). والناموس هو صاحب السر، وهو جبريل ـ عليه السلام ـ، انظر فتح الباري لابن حجر: ١/ ٣٠.

الثاني ـ طريق تحسين العقل.

لاتقتصر دلالة مضمون الدعوة على صدق النبي على مجرد موافقتها في طبيعتها وشرائعها للنبوات السابقة حتى تُلحق بنوعها، بل يشمل ذلك أيضا موافقتها للعقول السليمة، وللفطر المستقيمة؛ فإنه مامن أحد سليم الفطرة صحيح التجرد موفور العقل يُعرض عليه حال النبي ﷺ وما جاءه به من عقائد وشرائع وأخلاق وآداب، بل وما رواه عن ربه ـ تعالى ـ من قرآن، ومانطق به من حكمة، إلا ويقطع أنّ هذا لايمكن أن يكون إلا نبيا صادقا، وأنه يمتنع أشد الامتناع في حكم العقل أنّ من هذا حاله وكلامه يكون كاذبا متقولاً على الله.

وإلى هذا المعنى الإشارة في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ ۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾[1].

يقول ابن القيم: (ومعلوم أن نفس الدين الذي جاء به، والملة التي دعا إليها، من أعظم براهين صدقه، وشواهد نبوته، ومن لم يُثبت لذلك صفات وجودية أوجبت حسنه وقبول العقول له، ولضدّه صفات أوجبت قبحه ونفور العقل عنه، فقد سد على نفسه باب الاستدلال بنفس الدعوة، وجعلها مستدلاً عليه فقط)[2].

ومن أمثلة الاستدلال على صحة الرسالة بمعرفة العقل لحسنها وقبول الفطرة السليمة لها قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ﴾[3].

---

(١) سورة سبأ: ٤٦.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/٦، وهو في كلامه هذا يرد على من ينفي التحسين والتقبيح العقليين، وقد أسهب في الرد عليهم في هذا الموضع فراجعه.

(٣) سورة النساء: ١٢٥.

قال ابن القيم: (وهذا احتجاج منه ـ سبحانه ـ على أن دين الإسلام أحسن الأديان، بما تضمنه مما تستحسنه العقول وتشهد به الفطر، وأنه قد بلغ الغاية القصوى في درجات الحسن والكمال، وهذا استدلال بغير الأمر المجرد، بل هو دليل على أن ماكان كذلك فحقيق بأن يأمر به عباده، ولايرضى منهم سواه، ومثل هذا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1]، فهذا احتجاج بما رُكب في العقول والفطر؛ لأنه لاقول للعبد أحسن من هذا القول)[2].

ومن أمثلة ذلك أيضا قول حكيم العرب في جاهليتهم، أكثمَ بن صيفي، عن النبي ـ ﷺ ـ: «إن هذا الذي يدعو إليه لو لم يكن دينا لكان في أخلاق العرب حسنًا»[3].

وهذا تنزّل منه على سبيل الجدل، فهو يقول: إن هذا الذي جاء به محمد لو كان من عنده ـ على فرض أنه من مقدور البشر ـ لأوجب العقل الصحيح متابعته عليه، وطاعته فيه، فكيف وهو دين الله وشريعته، الذي لايطيق مخلوق إحداثه واختراعه.

---

(١) سورة فصلت: ٣٣.

(٢) مفتاح دار السعادة: ٢/ ١٠.

(٣) انظر سرح العيون في شرح رسالة ابن زيدون لابن نُباته المصري: ص٣٣. وانظر ترجمة أكثم بن صيفي وقصة إسلامه في الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: ١/ ١١٨.

المبحث السادس
إعجاز القرآن

لقد شاء الله ـ تعالى ـ أن تكون الآية الكبرى الدالة على صدق الرسول الخاتم ﷺ هي ذات الكتاب الذي يتضمن دعوته، ففيه هدي النبوة، وفيه برهانها. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «مامن الأنبياء نبي الا أُعطي من الآيات مامثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إلي، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[1].

وقد أنكر الله ـ عز وجل ـ على الكفار عدم اكتفائهم بالقرآن آية على صدق محمد ﷺ، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾[2].

فبالرغم من إلحاحهم في سؤال الآيات الحسية واقتراحهم الكثير منها إلا أنهم لم يُجابوا إلى ذلك، وإنما كانوا يُردّون دائما إلى القرآن، ويندبون للنظر في دلالته، أو إلى معارضته إن كانوا صادقين في تكذيبهم، وذلك أن الله ـ تعالى ـ قد علم من أنفسهم العناد والاستكبار، وإرادة التعجيز للنبي ﷺ في طلب الآيات، لا إرادة الحق والإيمان، لذلك ـ والله أعلم ـ لم يجابوا إلى ماسألوا[3]، إذ في دلالة القرآن أعظم كفاية لمن

---

(١) تقدم تخريجه في ص: ٤٥١.
(٢) سورة العنكبوت: ٥٠، ٥١.
(٣) انظر تفسير الرازي: ١٣/١٩.

كان صادقا في طلب الحق، كما أن له ﷺ من الآيات الحسية مايكفي عن السؤال والاقتراح، لمن بلدت قريحته وقصر فهمه عن معرفة دلالة القرآن.

ووجه دلالة القرآن على صدق النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ: هو أنه ليس في مقدور أحد كائنا من كان أن يأتي بهذا القرآن من عند نفسه إلا رب العالمين ـ تبارك وتعالى ـ، كما دل على ذلك قوله ـ عز وجل ـ: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٧﴾﴾[1].

قال ابن تيمية في معنى الآية: (يقول: ماكان ليفعل هذا، فلم ينف مجرد فعله، بل احتمال فعله، وأخبر بأن مثل هذا لايقع، بل يمتنع وقوعه، فيكون المعنى: مايمكن ولايحتمل ولايجوز أن يُفترى هذا القرآن من دون الله، فإن الذي يفتريه من دون الله مخلوق، والمخلوق لايقدر على ذلك)[2].

وكما دل على ذلك أيضا قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾[3].

وفي هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾[4].[5]

---

(١) سورة يونس: ٣٧.

(٢) الجواب الصحيح: ٥/ ٤٢٥.

(٣) سورة الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢.

(٤) سورة الإسراء: ٨٨.

(٥) يذكر بعض من يتكلم في إعجاز القرآن هذه الآية ضمن آيات التحدي، وإنما هي خبر عن امتناع أن يكون القرآن صادرًا عن غير الله ـ تعالى ـ، كما دلت على ذلك الآيتان المذكورتان قبلها، أما التحدي فإنه طلب وإنشاء، بأن يحدوهم الرسول، أي يدعوهم ويحثهم إلى أن يعارضوه، كما يقال: حادي العيس، لمن يبعثها على السير (انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/ ٤٢٢، ٤٢٣) وهذا المعنى ليس موجودًا في هذه الآية، والله أعلم.

فإذا كان الإتيان بمثل القرآن ممتنعا على هؤلاء حال اجتماعهم، فهو على محمد وحده أشد امتناعا، وفي آية الإسراء هذه ومافي معناها كقوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا﴾[1]، دليل عقلي على النبوة من جهة أنه لايُقدم على هذا الخبر العظيم المؤكد بالقسم من يطلب من الناس أن يصدقوه، إلا وهو واثق بأن الأمر كذلك، ولو كان عنده شك في ذلك لجاز أن يظهر كذبه في هذا الخبر فيفسد عليه ماقصده، وهذا مالا يُقدم عليه العاقل، وجميع الأمم متفقة مؤمنها وكافرها على كمال عقل محمد ومعرفته وخبرته، فلا يتصور أن يصدر هذا الخبر عن مثله إلا وهو يعلم أن هذا مما يعجز عنه الخلق، وهذا في حد ذاته من علوم الغيب الدالة على نبوته، وهو آية مستقلة، لها دلالتها غير الإعجاز؛ لأنه قد وقع الأمر كما أخبر، ولم يقدر أحد على معارضة القرآن[2].

ولما كانت دلالة إعجاز القرآن على النبوة لاتنهض إلا بإثبات امتناع القرآن على الثقلين، وعجزهم عن أن يأتوا بمثله، أمر الله ـ تعالى ـ نبيه ﷺ أن يتحدى كل من كذّبه أن يأتي بمثله، أو بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله على الأقل، وليستعينوا بمن شاؤوا، وكرر هذا الأمر لنبيّه في عدة مواضع من كتابه، مبالغةً في حثهم على معارضة القرآن، ليثبتوا بذلك دعواهم أنه مفترى؛ فإن هم لم يستجيبوا لهذه الدعوة، ولم يقدموا على مواجهة هذا التحدي ـ وكذلك كان ـ ثبت أنه إنما أنزل بعلم الله، وأنهم إنما يتبعون أهواءهم. ولم ينقل عن النبي ﷺ أنه تحدى مكذبيه بغير القرآن[3].

---

(١) سورة البقرة: ٢٤.

(٢) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/٤٠٩ ـ ٤١١.

(٣) انظر النبوات لابن تيمية: ص١٧٧، ١٧٨، وقد ذكر ابن تيمية أنه لايشترط في دلائل النبوة التحدي، بل لم ينقل التحدي بغير القرآن لاعن نبينا ولاعن غيره من الأنبياء، وإنما كان موقف السحرة من موسى معارضةً لابتحدٍ منه، أو طلب.

وقد جاء هذا التحدي في خمسة مواضع من كتاب الله ـ تعالى ـ، أربعة منها كان نزولها في المرحلة المكية من الدعوة، والأخير كان نزوله في أول المرحلة المدنية، فأما ما كان في مكة:

فأولها[1] ـ قوله ـ تعالى ـ عن كفار مكة: ﴿ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟[2] بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ[3] تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٠﴾ ﴾[4] والشاهد في هذا السياق قوله: ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟

---

(١) المستند في ترتيب النزول أثر ذكره السيوطي في الإتقان عن جابر بن زيد، من علماء التابعين، وقد قال السيوطي بعد إيراده: (هذا سياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر) الإتقان: ص٢٥، وانظر الإعجاز البياني لبنت الشاطىء: ص٦٧، ٦٨. وعدم ثبوته لايضر، فالدلالة غير مبنية على ترتيب النزول.

(٢) أي: أولم يكفر جنس البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات العظيمة، وبهذا يفهم كيف نُسب الكفر إلى قوم لم يدركوا موسى، انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٣٩٣.

(٣) هذه قراءة الكوفيين الثلاثة: عاصم، وحمزة، والكسائي، وقرأ باقي السبعة: ساحران بألف قبل الحاء، وعلى قراءة الكوفيين: في المقصود بالسِّحْرين ثلاثة أقوال: أنهما التوراة والإنجيل، أو التوراة والفرقان، أو الإنجيل والفرقان، وعلى قراءة الباقين: في المقصود بالساحرين ثلاثة أقوال كذلك: موسى وهارون، أو موسى ومحمد، أو عيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ. (انظر تفسير الطبري: ٢٠/ ٨٣ ـ ٨٥) وقد رجح ابن جرير قراءة الكوفيين، واضطرب كلامه في تحديد المراد بالسحرين، فذكر أنهما كتابا موسى وعيسى، ثم عاد فذكر أنهما كتابا موسى ومحمد. وانظر هاتين القراءتين في كتاب السبعة لابن مجاهد: ص٤٩٥.

(٤) سورة القصص: ٤٨ ـ ٥٠.

﴿بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾﴾ فإن التحدي فيه ظاهر، ولايضر الخلاف الحاصل في مرجع الضمير في قوله: ﴿مِنْهُمَآ﴾، فسواء قيل إنهما التوراة والقرآن أو التوراة والإنجيل، فهو يطالبهم على كلا الحالين أن يأتوا بكتاب من عند الله كما جاء هو بكتاب من عند الله هو أهدى من التوراة والإنجيل، وكما جاء موسى بكتاب من عند الله، وكما جاء عيسى بكتاب من عند الله، والبرهان الدال على كونه من عند الله الذي به يُعرف صدق ذلك من كذبه هو مافيه من الهداية، فلإن زعموا أن هذه الكتب السماوية سحر مفترىً، فليأتوا هم بالحق المتضمن للهدى، إن كانوا صادقين في زعمهم هذا، فإن لم يستجيبوا لذلك فإنما يتبعون أهواءهم، ولا أحد أضل ممن هذا حاله.

على أن الذي يتأمل سياق الكلام لايشك في أن مرجع الضمير هما التوراة والقرآن، إذ لم يرد ذكر لعيسى ولا للإنجيل في هذه السورة، لاقبل هذا الموضع ولابعده، وإنما الذي جاء قبله ذكر قصة موسى ومجيئه بالتوراة إلى قوم فرعون، وتكذيبهم له ووصفهم لما جاء به بأنه سحر مفترى، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ﴾[1]، ثم تكرر ذكر كتاب التوراة ومافيه من الهدى في الآية (٤٣)، ثم انتقل الكلام إلى تقرير نبوة محمد ﷺ وما جاء به من الحق الذي هو القرآن دون شك.

فالمذكور في هذا السياق إنما هو موسى والتوراة، ومحمد والفرقان، وفي الآية مزيد بحث ليس هذا مجاله، إلا أني أود أن أنبه إلى أن هذه الآية تميزت عن سائر آيات التحدي بما يلي:

---

(١) سورة القصص: ٣٦، ٣٧.

١) أنه طلب منهم هنا كتابا، بينما طلب منهم في غيرها سورة، أو عشر سور، أو حديثا مثله.

٢) أنه قيد الكتاب هنا بكونه من عند الله، فألزمهم أن ينسبوه إلى الله ـ تعالى ـ إذا هم أتوا به، بينما تنزّل معهم في غيرها فاكتفى بأن يكون حديثا مثله، ولو كان مفترىً ظاهر الافتراء.

٣) أنه ذكر وجه الإعجاز في هذه الآية، وأنه الهداية، فاشترط أن يكون مايأتون به (أهدى منهما)، وهذا يدل على أن التحدي ـ في هذه الآية على الأقل ـ غير مقصور في الإعجاز البلاغي، بل إن اقتران القرآن بالتوراة في التحدي دال على أن الإعجاز المراد في هذه الآية خاصة دون غيرها إنما هو في الهداية لاغير؛ لأن التوراة ليست بلغة العرب أصلاً، فضلاً عن أن تكون معجزًا من جهة الفصاحة.

ثانيها ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾[1].

ثالثها ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[2]، وقوله ـ تعالى ـ هنا: ﴿بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ نص في أن مرجع الهاء هو القرآن لاغير، وعلى هذا تُحمل آية سورة البقرة التي فيها قوله: ﴿مِنْ مِثْلِهِ﴾، والتي يحتمل الضمير فيها أن يعود إلى القرآن، أو إلى محمد ﷺ، وفي قوله: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ﴾ إشارة إلى أن من دلائل صدقه وصدق من جاء به مافيه من علم.

---

(١) سورة هود: ١٣، ١٤.

(٢) سورة يونس: ٣٨، ٣٩.

ويلاحظ التدرج في التحدي بين هذه الآية وسابقتها، فقد انخفض المتحدى به من عشر سور إلى سورة واحدة، وهذا دال على أن سورة هود سابقة لسورة يونس في ترتيب النزول، وإن كانتا مكيتين جميعًا[1].

رابعها ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾[2]. والحديث يصدق هنا على القليل والكثير، فليأتوا من جنس هذا الكلام ولو بالقليل.

خامسها ـ قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ﴾[3]، ولما كانت هذه الآية آخر مانزل، جاء التأكيد فيها على هزيمتهم في هذا التحدي بقوله تعالى: ﴿وَلَن تَفْعَلُوا۟﴾، وقد تقدم أن هذا من دلائل النبوة من جهة الإخبار بالغيب المستقبل، حيث شهد الواقع أنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا، كما أن قوله هنا (من مثله) فيه زيادة تنزل معهم، يقول الدكتور محمد عبدالله دراز[4]: (فكأنه يقول: لا أكلفكم بالمماثلة العامة، بل حسبكم أن تأتوا بشيء فيه جنس المماثلة ومطلقها، ربما يكون مثلاً على التقريب لا التحديد، وهذا أقصى مايمكن من التنزل)[5].

هذه آيات التحدي بالقرآن، ودليلها واحد، وهو أنكم أيها المكذبون

---

(١) انظر تفسير الرازي: ١٧/ ٩٥.
(٢) سورة الطور: ٢٩ ـ ٣٤.
(٣) سورة البقرة: ٢٣ ـ ٢٤.
(٤) فقيه متأدب مصري أزهري، كان من هيئة كبار العلماء بالأزهر، توفي سنة ١٣٧٧هـ. انظر الأعلام للزركلي: ٦/ ٢٤٦.
(٥) النبأ العظيم: ص٨٤ حاشية ١.

بالقرآن وبنبوة محمد ﷺ إن كنتم صادقين في زعمكم أن محمدًا مفترٍ على ربه في نسبته هذا الكلام إليه، فهو بشر مثلكم، وأنتم فصحاء بلغاء مثله، بل ربما كان فيكم من قد فاقه في ذلك من الشعراء والخطباء[1]، فلتفتروا كما افترى، ولتأتوا بمثل ما أتى به، فيظهر بذلك كذبه، وتسقط الكلفة عنكم في معاناة تكذيبه وتسفيهه والخصومة معه[2].

ويزيد هذا إيضاحًا قول الإمام الخطابي: (بقي النبي ﷺ يطالبهم به مدة عشرين سنة، مُظهرًا لهم النكير، زاريا على أديانهم، مسفهًا آراءهم وأحلامهم، حتى نابذوه وناصبوه الحرب، فهلكت فيه النفوس، وأريقت المهج، وقُطّعت الأرحام، وذهبت الأموال، ولو كان ذلك في وسعهم وتحت أقدارهم لم يتكلفوا هذه الأمور الخطيرة، ولم يركبوا تلك الفواقر المبيرة، ولم يكونوا تركوا السهل الدمث من القول إلى الحزْن الوعر من الفعل، وهذا مالا يفعله عاقل ولايختاره ذو لب، وقد كان قومه قريش خاصة موصوفين برزانة الأحلام، ووفارة العقول... فكيف كان يجوز على قول العرب ومجرى العادة مع وقوع الحاجة ولزوم الضرورة أن يغفلوه، ولايهتبلوا الفرصة فيه، وأن يضربوا عنه صفحًا، ولايحوزوا الفلح والظفر فيه، لولا عدم القدرة عليه، والعجزُ المانع منه، ومعلوم أن رجلا عاقلاً لو عطش عطشا شديدًا خاف منه الهلاك على نفسه، وبحضرته ماء معرّض للشرب، فلم يشربه حتى هلك عطشا، لحكمنا أنه عاجز عن شربه، غير قادر عليه)[3].

---

(١) هذا قبل النبوة، أما بعدها فإن الأحاديث النبوية تشهد أنه ﷺ أفصح العرب، انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب: ص٣ـ٥ والنبأ العظيم للدكتور دراز: ص٩٦.

(٢) انظر ما قاله ابن جرير في تفسيره لآية هود في التحدي: ١٢/ ١٠، وشرح الأصفهانية لابن تيمية: ص١٦٥، ١٦٦، والنبوات له: ص١٦٤.

(٣) بيان إعجاز القرآن، ضمن ثلاث رسائل في اعجاز القرآن: ص٢١، ٢٢، =

هذه على وجه الإجمال دلالة القرآن على صدق النبوة، أما تفصيل الكلام في ذلك، وبيان السبب المباشر في عجز العرب عن المعارضة، وهل المثلية المطلوبة منهم مقتصرة على النواحي اللغوية، أم أنها تشمل مافي القرآن من أخبار الغيب وأحكام التشريع والأخلاق والآداب والحكم والمواعظ وغيرها من المعاني التي يعجز عن جمعها أحد من الخلق على نحو مافي القرآن، ففي هذا كلام طويل، وخلاف لايتسع المقام لذكره فضلاً عن تحقيقه، إلا أن الخلاصة أنه لاخلاف في تعدد الوجوه والدلائل في القرآن على أنه معجز للخلق، وليس من مقدورهم، فبلاغته معجزة، وأخباره معجزة، وأحكامه وشرائعه معجزة، وأخلاقه وآدابه معجزة، وسائر معانيه وعلومه معجزة للعرب ولغيرهم من الإنس والجن، إلا أن التحدي الموجّه: هل كان شاملاً لهذه الوجوه كلها[1]؟ هذا المقام قد وقع فيه خلط بين حقيقتين متباينتين[2]:

الأولى ـ أن التحدي الذي جاء في القرآن إنما هو تحدٍ بلفظه ونظمه وبيانه لاغير، فلا يدخل في ذلك إخباره بالغيب، ولاغير ذلك من معانيه.

الثانية ـ أن إثبات النبوة بالقرآن وإثبات تنزيله من عند الله لايتوقف على كونه معجزًا في لفظه، بدليل أن التوراة والإنجيل والزبور ـ مع كونها ليست معجزة بألفاظها كإعجاز القرآن ـ متضمنّة لكثير من الوجوه الدالة على نبوة من أوحيت إليهم، وأنها من كلام الله.

= وانظر كلاما نحو هذا في بدائع الفوائد لابن القيم: ٤/ ١٣٥ و«النبأ العظيم» للدكتور دراز: ص٨٩.

(١) انظر تحقيق هذه المسألة للأستاذ محمود شاكر في تقديمه لكتاب الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي: ص٢٦ ـ ٣١.

(٢) انظر الظاهرة القرآنية: ص٢٨.

وإذا كان النبي ﷺ في أوائل دعوته إنما نزل عليه قليل من القرآن ومع ذلك كان هذا القليل هو برهان نبوته؛ فإن هذا يدل على أن قليل القرآن؛ وكثيره؛ أو كله سواء في إثبات النبوة وقيام الحجة بها على من سمعه، وأن الوجه في ذلك إنما هو وجه البيان والنظم، فإذا أقروا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء فيه من المعاني حق لاريب فيه، يقول محمود شاكر: (وإذن فإقرارهم من وجه النظم والبيان أن هذا القرآن كلام رب العالمين دليل يطالبهم بالإقرار بصحة ماجاء فيه..

أما صحة ما جاء فيه؛ فليست هي الدليل الذي يطالبهم بالإقرار بأن نظم القرآن وبيانه مباين لنظم البشر وبيانهم، وأنه بهذا من كلام رب العالمين)[1].

وبهذا التحقيق يظهر لنا أن مصطلح «إعجاز القرآن» قد وقع فيه إجمال، فقد يطلق على التحدي الذي وجّهه الله ـ تعالى ـ في القرآن إلى المكذبين من قريش والعرب، وهذا دون شك محصور في الناحية اللفظية البيانية، إذ هي القدر المشترك بين سائر آيات القرآن وسوره، لاتختص به سورة عن سورة، ولا آية عن آية، وعجز فصحاء العرب وبلغائهم دليل على عجز غيرهم من معاصريهم ومن جاء بعدهم ممن هو دونهم في الفصاحة والبيان من باب أولى، كما قد يطلق «إعجاز القرآن» على وجوه دلالته على النبوة المحمدية، من حيث إنه حوى معاني يعجز عنها محمد وغيره من الإنس والجن، وفي بيان هذه المعاني توسع العلماء وأطنبوا، وذكروها على أنها أنواع لإعجاز القرآن، وجعلوها شرحًا وبيانا لآيات التحدي، مع أنها ـ كما ظهر لنا مما سبق ـ لاتلازم بينها وبين إثبات أن القرآن كلام الله، حتى تُجعل

---

(١) الظاهرة القرآنية: ٢٨، من مقدمة محمود شاكر.

دليلاً عليه، إذ يمكن أن يوحي الله ـ تعالى ـ هذه المعاني إلى نبيه فيبينها للناس بكلامه هو، وبلفظه هو، أو أنها تكون من كلام الله ـ تعالى ـ لكن دونما إعجاز بياني، كما هو شأن الأحاديث القدسية، وكما هو شأن التوراة والإنجيل، وحينئذ تكون دلالتها على النبوة من جهة الهداية، كما سبق بيانه في آية القصص، فلا اختصاص للقرآن حينئذ بهذا النوع من الإعجاز من بين الكتب الإلهية.

وبهذا البيان أيضا يُعلم صواب من تكلم من العلماء في بيان وجوه إعجاز القرآن، ودلالته على النبوة[1]، كما حكى الخطابي في رسالته في بيان إعجاز القرآن[2]، حيث ذكر قول من قال بالصرفة، ووصفه بأنه قريب، إلا أنه ضعّفه، وسيأتي الكلام عليه، وذكر قول من قال إنه معجز لما تضمنه من أنباء الغيب المستقبل، ومع تأكيده على أن هذا من أنواع إعجازه، إلا أنه ضعفه بكونه ليس موجودًا في كل سورة من القرآن، فهو بذلك يريد اختيار الوجه الذي وقع به التحدي، ثم ذكر القول بأن الإعجاز حاصل من جهة البلاغة، وأن عليه أكثر علماء أهل النظر، إلا أنه يعرض لهم فيما اختاروه إشكال من جهة تحديد هذه البلاغة التي اختص بها القرآن، والمعنى الذي تميزت به عن سائر أنواع الكلام البليغ، ثم انتقدهم الخطابي بأنهم أحالوا في بيان هذا الإشكال على إيهام، وذكروا مالا مقنع فيه، ثم ذكر هو أن من أسباب الإعجاز البلاغي في القرآن: جمعه بين وصفي الفخامة والعذوبة، فهما وصفان إذا انفردا كانا متضادين، (لأن العذوبة نتاج السهولة، والجزالة والمتانة تعالجان نوعًا من الوعورة، فكان اجتماع الأمرين في نظم القرآن مع نبوّ كل واحد منهما عن الآخر فضيلةً خُص

---

(١) انظر مثلاً الحجة في بيان المحجة لأبي القاسم الأصبهاني: ١/ ٣٥٠، ٣٥١.

(٢) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص٢٢ ـ ٢٤، ٧٠.

بها القرآن)[1] كما ذكر أن سبب تعذّر مثل ذلك على البشر: عدم إحاطتهم بجميع أسماء اللغة العربية وألفاظها.

ثم ذكر أن الكلام إنما يقوم بثلاثة أشياء: (لفظ حامل، ومعنىً به قائم، ورباط لهما ناظم، وإذا تأملت القرآن وجدت هذه الأمور فيه في غاية الشرف والفضيلة... وقد توجد هذه الفضائل الثلاث على التفرق في أنواع الكلام، فأما أن توجد مجموعة في نوع واحد، فلم توجد إلا في كلام العليم القدير، الذي أحاط بكل شيء علما، وأحصى كل شيء عددًا. فتفهّم الآن واعلم أن القرآن إنما صار معجزًا؛ لأنه جاء بأفصح الألفاظ في أحسن نظوم التأليف مضمنا أصح المعاني)[2]. ثم ذكر الخطابي في آخر رسالته وجها آخر لإعجاز القرآن، ذهب عنه الناس فلا يكاد يعرفه إلا الشاذ من آحادهم، ألا وهو صنيعه بالقلوب، وتأثيره في النفوس[3].

وهكذا نرى أن الخطابي ـ رحمه الله تعالى ـ لم يجعل الجانب المعنوي من الإعجاز بمعزل عن التحدي، بل اعتبره ثالث ثلاثة أسس يقوم الإعجاز البلاغي على اجتماعها في الكلام، إلا أن الأصل فيها الجانب البياني، والجانب المعنوي مرجح على سبيل التبع والانضمام.

وكذلك وصف الرازي تنوع وجوه دلالة القرآن على النبوة بأنه اختلاف في وجه إعجازه فقال: (اختلف الناس في الوجه الذي لأجله كان القرآن معجزا، فقال بعضهم: هو الفصاحة، وقال بعضهم: هو الأسلوب، وقال ثالث: هو عدم التناقض، وقال رابع: هو اشتماله على العلوم الكثيرة، وقال خامس: هو الصرف، وقال سادس: هو

---

(١) ثلاث رسائل في الإعجاز: ص٢٦.

(٢) المرجع السابق: ص٢٧.

(٣) انظر المرجع السابق: ص٧٠.

اشتماله على الإخبار عن الغيوب)[1].

ثم اختار هو القول الأول، محتجًا بوصف السور المطلوبة في التحدي بأنها مفتريات، كما نصّت على ذلك آية سورة هود، إذ لو كان وجه الإعجاز هو كثرة العلوم أو الإخبار عن الغيب أو عدم التناقض لم يكن لوصفها بذلك معنى، أما على القول بالفصاحة فإن ذلك يصح؛ لأن الفصاحة لايشترط فيها صدق الكلام.

فهذا الخلاف الذي حكاه الرازي يزول عند تفصيل المراد بالإعجاز على نحو ما ذُكر سابقا.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: (والقرآن مما يعلم الناس عربهم وعجمهم أنه لم يوجد له نظير، مع حرص العرب وغير العرب على معارضته، فلفظه ونظمه آية، وإخباره بالغيوب آية، وأمره ونهيه آية، وإذا ترجم بغير العربية كانت معانيه آية، كل ذلك لايوجد له نظير في العالم)[2]. وقال أيضا: (كل ماذكره الناس من الوجوه في إعجاز القرآن هو حجة على إعجازه، ولاتناقض في ذلك، بل كل قوم تنبهوا لما تنبهوا له)[3].

وذكر ابن الوزير اليماني أن وجوه إعجاز القرآن ثلاثة:

الأول ـ بلاغته وأسلوبه.

الثاني ـ ما اشتمل عليه من أنباء الغيب.

الثالث ـ ما اشتمل عليه من المنع من المفاسد والأمر بالمصالح، والأخبار الصادقة والأحكام العادلة.

وقد استنبط هذه الوجوه الثلاثه من قوله ـ تعالى ـ عن القرآن:

---

(١) مفاتيح الغيب: ١٧/ ١٩٥.

(٢) النبوات: ص١٦٤.

(٣) الجواب الصحيح: ٥/ ٤٢٩.

﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾[1]. فالأول أشار إليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ ﴾، والثاني أشار إليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ والثالث أشار إليه بقوله: ﴿ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ ﴾؛ لأن الشياطين لايصدر منهم مافيه إرشاد إلى الخير والمنع من الشر[2].

وذكر ابن الوزير أنه لم يعلم من سبقه للوجه الثالث، وأنه نبهه إليه قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ ﴾[3]، قال: (لأن كتاب موسى ـ عليه السلام ـ غير معجز من جهة البلاغة... ولكنهم يعلمون جملةً بالتواتر: أنه مشتمل على المنع من المفاسد والأمر بالمصالح، وهذا لايكون من شيطان؛ لأنه نقيض قصده)[4].

وما ذكره ابن الوزير هنا في الوجه الأخير، واستنباطه ذلك من آية الشعراء والأنعام، يؤكد ماسبق ذكره من دلالة القرآن على النبوة من جهة الهداية، وفي ذلك يقول ابن تيمية:

(ومن تدبر ماصنفه جميع العقلاء في العلوم الإلـٰهية والخُلقية والسياسية وجد بينه وبين ماجاء في الكتب الإلـٰهية: التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء، وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم مما بين لفظه ونظمه وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم، فالإعجاز في معناه أعظم وأكثر من الإعجاز في لفظه، وجميع عقلاء الأمم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه، أعظم من عجز العرب عن الإتيان

---

(١) سورة الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢.

(٢) انظر العواصم والقواصم: ١/ ٢٠٤.

(٣) سورة الأنعام: ٩١.

(٤) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم: ١/ ٢٠٤ وما ذكر أنه لم يعلم من سبقه إليه سبقه إليه ابن تيمية، كما في الجواب الصحيح: ٥/ ٣٤٩ ـ ٣٥٠.

بمثل لفظه)[1].

ومن الوجوه التي ذُكرت لإعجاز القرآن: القول بأن الله ـ تعالى ـ صرف همم العرب ودواعيهم عن معارضته، مع كونها من مقدورهم. ورغم أن هذا القول لايعطل الدلالة العقلية للقرآن على صحة النبوة، بل هي قائمة تامة حتى على القول به ـ إذ هو على هذا القول آية ظاهرة باهرة تدل على صدق الرسول دلالة حسية كغيرها من آيات الأنبياء، كما لو أن الله ـ تعالى ـ جعل معجزة نبي من الأنبياء أن يحرك يده أو رجله ولايستطيع ذلك غيره من الناس، دونما آفة في جوارحهم، لكانت تلك آية عظيمة دالة على نبوته[2] ـ إلا أن القول بها ينزل بإعجاز القرآن من مرتبة الإعجاز الذاتي إلى مرتبة الإعجاز الخارجي، وشتان بين المنزلتين.

ولهذا أنكر أهل السنة القول بالصرفة[3]، بل إن المعتزلة الذين صدّروا هذا القول منهم من خالف في ذلك كالجاحظ[4]، مع كونه تلميذًا للنظّام، الذي ذُكر أنه أول من قال بهذا القول، وألف في ذلك كتابه (نظم القرآن) مخالفا به رأي شيخه[5]، وكالقاضي عبدالجبار الهمداني[6] المعتزلي، ومنهم من عدّه وجها من وجوه الإعجاز

---

(١) الجواب الصحيح: ٥/ ٤٣٤.

(٢) انظر بيان إعجاز القرآن للخطابي: ص٢٣.

(٣) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٦٥.

(٤) هو عمرو بن بحر بن محبوب، أبو عثمان الجاحظ، من أئمة المعتزلة، كان عالما بالأدب، فصيحا بليغا مصنفًا في فنون العلم، توفي سنة: ٢٥٥هـ. انظر معجم الأدباء لياقوت: ١٦/ ٧٤، ونزهة الألباء لابن الأنباري: ص١٤٨.

(٥) انظر الإعجاز البياني لبنت الشاطىء: ص٨٣.

(٦) انظر المغني: ١٦/ ٣٢٢.

كالرماني[1]، إلا أنه لم يحصر الإعجاز فيه.

ومن أهل السنّة من يجعل القول بالصرفة مقبولاً على سبيل التنزل مع الخصم، بمعنى أنه حتى على القول به فإن دلالته على صحة النبوة صحيحة ثابتة، وإلا فالمقطوع به أنه قول باطل، أو على الأقل غير مرضي كما عبّر ابن كثير[2]، وقد مرت عبارة الخطابي اللينة في التعبير عن ضعف هذا القول، حيث وصفه بأنه قريب إلا أنه مرجوح.

يقول ابن تيمية: (من أضعف الأقوال قول من يقول من أهل الكلام إنه معجز بصرف الدواعي، مع تمام الموجب لها، أو بسلب القدرة التامة، أو بسلبهم القدرة المعتادة في مثله سلبًا عاما، مثل قوله ـ تعالى ـ لزكريا: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ۝١٠﴾[3]، ... فإن هذا يقال على سبيل التقدير والتنزيل، وهو أنه إذا قُدر أن هذا الكلام يقدر الناس على الإتيان بمثله، فامتناعهم جميعهم عن هذه المعارضة مع قيام الدواعي العظيمة إلى المعارضة من أبلغ الآيات الخارقة للعادات... الخ)[4].

وممن نصر القول بالصرفة، وجعله وجه إعجاز القرآن ابن حزم[5]، مع أنه يقول في ترجيح أن المعجز من القرآن هو النظم والمعنى معًا: (وقال سائر أهل الإسلام: بل كلا الأمرين، نظمه ومافيه من الإخبار

---

(١) انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن: ص١١٠. والرماني هو أبو الحسن علي بن عيسى بن عبدالله، من كبار النحويين، كان متفننا في اللغة والفقه والاعتزال والمنطق، توفي سنة ٣٨٤هـ. انظر نزهة الألباء: ص٢٣٣ ـ ٢٣٥.

(٢) انظر تفسير القرآن العظيم: ١/ ٦٥.

(٣) سورة مريم: ١٠.

(٤) الجواب الصحيح: ٥/ ٤٣١.

(٥) انظر الفصل: ٣/ ٢٧.

بالغيوب، وهذا هو الحق الذي ماخالفه فهو باطل)[1] فكأنه يجعل هذا هو المتحدى به، والصرفة السبب المباشر للعجز عن المعارضة.

وعلى كل حال فالأدلة الموجبة لرد هذا القول كثيرة منها:

١) ما ذكره الرازي من أنه (لو كان الوجه في كون القرآن معجزًا هو الصرف لكان دلالة الكلام الركيك النازل في الفصاحة على هذا المطلوب أوكد من دلالة الكلام العالي في الفصاحة)[2].

٢) أنه ينزل برتبة الإعجاز القرآني كما تقدم.

٣) أنه لادليل عليه أصلاً، بل هو قول مبتدع.

٤) أن من العرب من عارض القرآن كمسيلمة وغيره، وإن كان نادراً، فدل على عدم الصرف.

وبعد، فهذا على وجه الإجمال والإيجاز الشديد عرض سريع لقضية إعجاز القرآن، ذكرت منها ما رأيته كافيا لبيان الدلالة العقلية المستقلة لإعجاز القرآن على النبوة، وإلا فهي قضية واسعة ربما احتملت رسالة كاملة.

ولنختم هذا المبحث بذكر مالابد منه لتمامه، من الشبه الواردة على هذا الدليل الأعظم من دلائل النبوة، مع الرد عليها وتفنيدها.

وقد كفانا مؤونة ذلك بمالا مزيد عليه الدكتور محمد عبدالله دراز ـ رحمه الله ـ في كتابه «النبأ العظيم»، حيث استقصى مايمكن أن يتعلق به المكذبون من شبه لإسقاط دلالة الإعجاز، وكرّ عليها بالنقض، في غاية من القوة والدقة.

وقد ذكر أن شبههم في ذلك لاتعدو ستة وجوه.

---

(١) الفصل: ٣/ ٢٦.

(٢) تفسير الرازي (مفاتيح الغيب): ١٧/ ١٩٥.

١ ـ أن يزعموا أنهم على ذلك قادرون.
٢ ـ أنهم علموا من أنفسهم العجز، لكن لم يقرّوا بعمومه عليهم وعلى غيرهم.
٣ ـ أن يقروا بأنه لم يعارض القرآن أحد، إلا أنهم ينكرون أن سبب ذلك عجزهم.
٤ ـ أن يقروا بعجز الناس عنه، لكن ينكرون أن يكون سر ذلك بلاغته وفصاحته.
٥ ـ أن يقروا بإعجاز القرآن لسائر الخلق، عدا من جاء به.
٦ ـ أن يردوا هذه الدلالة لعجزهم عن معرفة أسرار الإعجاز وأسبابه[1].

ثم نقض هذه الوجوه واحدًا واحدًا بما أُورد خلاصته على الترتيب فيما يلي:

١ ـ هذا الزعم ليس بجديد، وقد ذكره القرآن عن الكفار، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُنَا قَالُوا۟ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَـٰذَآ ۙ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾﴾[2] ومع ذلك لم يتقدموا بمحاولة تذكر، إلا ما ذكر عن مسيلمة وأمثاله من الهذيان، وهو إنما كان يقتبس من القرآن مع تبديل بعض الألفاظ، يقول الدكتور دراز: (وإن في التاريخ لعبرًا تؤثر من أناس حاولوا مثل هذه المحاولة، فجاءوا في معارضة القرآن بكلام لايشبه القرآن ولايشبه كلام أنفسهم، بل نزلوا به إلى ضرب من السخف والتفاهة بادٍ عواره، باقٍ عاره وشناره، فمنهم عاقل استحيا أن يتم تجربته، فحطم قلمه ومزق صحيفته،

---

(١) انظر النبأ العظيم ص٨٠، ومابعدها وقد اختصرت كلامه مع شيء من التصرف.
(٢) سورة الأنفال: ٣١.

ومنهم ماكر وجد الناس في زمنه أعقل من أن تروج فيهم سخافاته، فطوى صُحفه وأخفاها إلى حين، ومنهم طائش برز بها إلى الناس، فكان سخرية للساخرين ومثلاً للآخرين)[1].

ومن كان عنده وسواس أنه يقدر عليه، فدواؤه أن ينظر في أساليب العرب حتى تستحكم عنده ملكة النقد البياني، وتستبين له طريق الحكم في مراتب الكلام، ثم ينظر في القرآن بعد ذلك، فإنه كلما زاد بصره بأسرار اللغة زادت معرفته بقدر نفسه.

٢ ـ وأما زعمهم عدم عموم الإعجاز فجوابه أن يقال: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2]، ارجعوا إلى أدبائكم وأعظمكم فصاحة وبيانا، ثم سلوهم هل يقدرون على مثل القرآن، فإن ادعوا ذلك، فجوابهم ماسبق ذكره في جواب الشبهة السابقة، وإن أقروا بالعجز قامت الحجة بهم على غيرهم. ويُجاب على ذلك أيضا بشهادة التاريخ أن أحدًا لم يرفع رأسه لمعارضة القرآن دهرًا ما، لا في عصر نزوله ولابعده، مع أن عصر نزوله هو أزهى عصور البيان العربي، فيكون عجز أهله دالاً على عجز من بعدهم من باب أولى، هذا مع كون الأوائل قد ووجهوا بالتحدي، ونُدبوا إلى المعارضة، وهم أهل الأنَفَة والخصومة واللدد، الحريصون على تكذيب محمد، ثم هم بعد ذلك لاينتدبون لمعارضته، فلا أعظم من هذا دلالة على عموم العجز والإعجاز[3].

٣ ـ أما إنكار أن يكون سبب ترك المعارضة العجز فيقال في رده:

الفروض التي يمكن أن يعلل بها سكوتهم عن المعارضة هي:

---

(١) النبأ العظيم: ص٨٢.

(٢) سورة النحل: ٤٣.

(٣) انظر النبأ العظيم: ص٨٣ ـ ٨٥.

أ ـ عدم توفر البواعث إلى ذلك.

ب ـ أنهم لم يكترثوا له ولم يكن شغلهم الشاغل، فأعرضوا عنه استصغاراً لشأنه.

جـ ـ أن يكون عرض عارض لهم عطلهم عن ذلك، مع توجه إرادتهم إليه[1].

وهذه الفروض يُعلم بطلانها عند أدنى تأمل.

أما الأول: فإن القرآن قد أعاد وثنى قضية التحدي، وقرّعهم على عجزهم عن ذلك، وفي ذلك مايكفي لإثارة حفيظة الجبان، وإشعال همته للدفاع عن نفسه، فكيف الأمر بمن كان مجبولاً على الأنفة والحمية كما هو حال العرب؟ بل كيف إذا كان الأمر الذي تتحداه به هو صناعته التي يفاخر بها؟ بل كيف لو كان مع ذلك يُرمى بسفاهة الرأي وضلال المعتقد؟[2].

وأما الثاني: فالواقع يشهد بخلافه، فإنهم لم ينصرفوا عنه البتة، بل كان شغلهم الشاغل، وهمهم الناصب، حتى إنهم لم يدعوا وسيلة لمقاومته إلا توسلوا بها، ترغيبا وترهيبا، باللين والشدة، بالسنان واللسان، فكيف يقول عاقل بعد هذا إنهم كانوا في شغل عن القرآن وقلة عناية بشأنه؟ مع أنه كان يمكنهم أن يستريحوا من عناد هذه المقاومة المكلِّفة لهم أشد الكلفة وأن يُسكتوه بمعارضتهم هذا الكلام الذي يتحداهم به[3].

وأما الثالث: فهو القول بالصرفة، ولو صح لما استبان إلا بعد أن يبسطوا ألسنتهم، ويجربوا قدرتهم، إذ لايمكن أن يحسوا بزوال

---

(١) انظر النبأ العظيم: ص٨٦.

(٢) انظر المرجع السابق: ص٨٦.

(٣) انظر المرجع السابق: ص٨٧.

قدرتهم إلا بعد المحاولة والتجربة، وهم لم يحاولوا ولم يجربوا، فكان ذلك دليلاً على يأسهم الطبيعي من أنفسهم، وعلى شعورهم بأن عجزهم عنه عجز فطري عتيد، كعجزهم عن إزالة الجبال، وعن تناول نجوم السماء، وأنهم كانوا في غنى بهذا العلم الضروري عن طلب الدليل عليه بالمحاولات والتجارب.

على أنه لو صح هذا القول لكان عجب الناس إذًا متوجهًا إلى أنفسهم: كيف عجزوا عنه وهو في مستوى كلامهم، كيف عيوا به وهو منهم على طرف ألسنتهم؟ أو لرجعوا إلى نتاجهم القديم، فأتوا منه بما يضاهي القرآن، وتقدموا به للتحدي؛ فإنه كان مشحونا بالدعوة إلى ما دعا إليه القرآن، كما كان في كلام الحنفاء من فحول الخطباء والشعراء، كقس ابن ساعدة[1] وأمية بن أبي الصلت[2] وغيرهما.

ولكنهم لم يجيئوا بقديم ولا جديد، بل كان القرآن مثار عجبهم وإعجابهم، حتى إنهم ليخرون سجدًا عند سماعه، قبل أن يتمهلوا للموازنة بينه وبين فصيح كلامهم، بل منهم من لايستطيع أن يكتم ما في نفسه، فيقول معترفا: ماهذا بقول بشر[3].

٤ ـ أما إنكار أن يكون سر الإعجاز في فصاحته وبيانه فلا يقول

---

(١) هو قس بن ساعدة بن جذامة بن زفر بن إياد بن نزار الإيادي، البليغ الخطيب المشهور، أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، كانت العرب تعظمه، ذكروا أنه عُمّر دهرًا طويلاً، مات قبل البعثة، وروي أن النبي ـ ﷺ ـ ترحم عليه. انظر الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر العسقلاني: ٣/ ٢٦٤، ٢٦٥.

(٢) الثقفي، الشاعر المشهور، امتنع عن الإسلام حسدًا للنبي ﷺ، ورثى المشركين الذين قتلوا ببدر، ومات كافرًا باتفاق، سنة ٩هـ فيما يقال، انظر الإصابة لابن حجر: ١/ ١٣٤، ١٣٥.

(٣) انظر النبأ العظيم للدكتور دراز: ص٨٩.

به إلا من لم يرزق قوة الفصل بين درجات الكلام، ومعرفةَ أنه ليس بكلام عربي ككل كلام عربي، وأن الناحية اللغوية البيانية جديرة بأن تتفاوت فيها القوى، نازلةً إلى حد العجز، أو صاعدةً إلى حد الإعجاز.

فمن كان هذا سبيله فعليه أن يأخذ حكمه مسلَّما عن أهله، ويقنع فيه بشهادة العارفين به، وليأخذ عبرة في ذلك من قصة الوليد بن المغيرة[1] وسماعه القرآن من رسول الله ﷺ[2].

٥ ـ أما زعمهم إمكان أن يكون معجزًا للجميع عدا محمدًا ﷺ[3]، بمعنى أنه أسلوب خاص به، كما أن غيره يختص بأسلوبه؟ فجوابه: أنه لايلزم من التحدي بالقرآن أن يؤتى بنفس صورته الكلامية، وإنما المطلوب كلامٌ أيًا كان نمطه ومنهاجه، على النحو الذي يُحْسِنه المتكلم أيا كانت فطرته ومزاجه، بحيث إذا قيس مع القرآن بمقياس الفضيلة البيانية حاذاه أو قاربه في ذلك المقياس وإن كان على غير صورته الخاصة[4]، وهذا هو القدر الذي فيه يتنافس البلغاء، وفيه يتماثلون أو يتقاربون، وذلك غير المعارض والصور المعينة التي لابد من الاختلاف فيها بين متكلم ومتكلم.

---

(١) هو الوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم، أبو عبد شمس، من قضاة العرب في الجاهلية، ومن زعماء قريش، نزل فيه قوله ـتعالى ـ: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾﴾، الآيات ١١ ـ ٣٠ من سورة المدثر، وقصة سماعه القرآن من النبي ﷺ، في تفسير ابن جرير الطبري: ٢٩/١٥٦. هلك في السنة الأولى من الهجرة. انظر الأعلام للزركلي: ٨/١٢٢.

(٢) انظر النبأ العظيم: ص٨٩ ـ ٩٤.

(٣) سيأتي إن شاء الله ـ تعالى ـ في المبحث التالي ردّ القرآن على من زعم أن محمدًا افتراه.

(٤) راجع ما قاله الطبري في المراد بالمثلية في قوله ـتعالى ـ: ﴿بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾، جامع البيان: ١/١٦٦.

وحينئذ إذا فرضنا في المدعوين إلى المعارضة من هو كفؤ وند لمحمد ﷺ في المقدرة البيانية، أو من هم أكمل منه فيها، أو أنهم جميعا دونه في تلك المنزلة؛ فإن الأعلين سيجيئون على وفق سليقتهم بقول أحسن من قوله، وأما الأنداد فسيجيئون بشيء مثله، وأما من هم دونه فلن يكبر عليهم أن يقاربوا ويجيئوا بشيء من مثله، وشيء من هذه المراتب الثلاث لو تم لكان كافيا في رد الحجة وإبطال التحدي[1].

فإن قيل: بل الواقع أن أحدًا لايداني محمدًا في بلاغته، وقصورهم عن معارضة القرآن راجع إلى ذلك.

فجوابه: أن التفاوت الذي كان بين محمد ﷺ وبين فصحاء العرب لم يكن تفاوتا خارقا للعادة، خارجًا عن حدود القدرة البشرية، وإنما كان شبيها بما يكون في العادة بين البليغ والأبلغ، والحسن والأحسن، وهذا القدر من التفاوت إن حال بينهم وبين أن يجيئوا بمثل كلامه كله لم يكن ليحول بينهم وبين قطعة واحدة منه، فلو كان القرآن من كلامه لما أعياهم ذلك اليسير أن يأتوا به، أو بمثله، أو يدانوه[2].

فإن قيل: إن مرجع هذا التفاوت هو اختصاص محمد من بين الناس بفطرة شاذة لاتناسب بينها وبين سائر الفطر في قليل ولاكثير.

فجوابه: أن حقيقة هذا القول إخراج محمد ﷺ من بشريته، وكأن قائله يقول: إن من الإنسان ماليس بإنسان، أو إن مايجيء به هذا الإنسان لايكون من عمل الإنسان، والواقع أن الطبيعة الإنسانية العامة واحدة، فلو كان أسلوب القرآن من عمل صاحبه الإنسان لكان حريا أن يجيء بشيء من مثله من كان أشبه بهذا الإنسان مزاجا، وأقرب إليه هديا وسمتا، ولكان جديرًا بأصحابه الذين نزل القرآن بين

---

(١) انظر النبأ العظيم: ص٩٤ ـ ٩٦.

(٢) انظر النبأ العظيم: ص٩٦، ٩٧.

أظهرهم فقرؤوه وتذوّقوه وتمثلوه أن يدنو أسلوبهم شيئا فشيئا من أسلوبه على ماتقضي به غريزة التأسي، ولكن شيئا من ذلك كله لم يكن[1].

٦ ـ أما العجز عن إدراك إعجاز القرآن، ومعرفة أسراره فجواب ذلك أن يقال: إن كان هذا العجز عن جهل فدواؤه العلم و«إنما شفاء العي السؤال»[2]، وقد انتدب العلماء لبيان إعجاز القرآن قديما وحديثا، فليُرجع إليهم في هذا، وليُقرأ ما كتبوه، حتى يقف الناظر على روعة البيان القرآني، ويتكشف له سر إعجازه.

وإن كان عن يأس وعدم ملكة فليسعه التقليد في هذا؛ فإن من علم حجة على من لم يعلم، وعجز الفصحاء والبلغاء عن معارضة القرآن، وشهادتهُم له بأنه فوق طاقة البشر كل أولئك حجة على الناس أجمعين، والحمد لله رب العالمين[3].

---

(١) انظر المرجع السابق: ص٩٧ ـ ١٠٠.

(٢) انظر سنن أبي داود، كتاب الطهارة، باب في المجروح يتيمم، (١/٩٣)، برقم (٣٣٦).

(٣) انظر النبأ العظيم: ١٠٠، ١٠١. وسائر ما أوردته من شبهات وردود من ص٥٥٤ إلى هنا فإنما هو ملخص من هذا الكتاب.

المبحث السابع
الرد على من زعم أن محمدًا ﷺ مفترٍ يعلمه بشر

كل مامضى من أنواع دلائل النبوة ردود على هذا الافتراء، وقد مرّ عند ذكر شبهات المنكرين لإعجاز القرآن أنهم قالوا: ما الذي يؤمننا من أن يكون معجزًا لكل أحد عدا محمدًا، وأن هذا من قبيل الاختصاص بأسلوب معين من الكلام، لايشارك صاحبه فيه غيره، وذكرنا جواب ذلك باختصار، وهنا نسوق الدلائل القاطعة، على امتناع صدور القرآن عن النبي ﷺ بالذات، وامتناع أن يكون قد تعلمه من بشر. والله ـ تعالى ـ قد بين أن من حِكَم تفصيل الآيات أن يصير المكذبون إلى هذا القول الظالم، لتتم بذلك حكمة الابتلاء، ويظهر المكذب من المصدق، وذلك في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْآيَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ(١) وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾ ﴾(٢).

وقد اتهم المشركون النبي ﷺ بهذه الفرية، كما ذكر الله ـ تعالى ـ عنهم في قوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾(٣).

فرد الله ـ تعالى ـ عليهم في الآية التي تليها بقوله: ﴿ قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى

---

(١) في هذا الحرف ثلاث قراءات سبعيات: دَرَسْتَ ودارَسْتَ، ودَرَسَت بمعنى انمحت وتقادم عهدها، واستشهادنا هنا على القراءتين الأوليين. انظر كتاب السبعة لابن مجاهد: ص٢٦٤.

(٢) سورة الأنعام: ١٠٥.

(٣) سورة الفرقان: ٤، ٥.

﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[1]، وهذه إشارة إلى أن مافي القرآن من الأسرار التي لايعلمها إلا الله دالّ على أن الله ـ تعالى ـ هو الذي أنزله[2]؛ فإن ذلك ليس في مقدور أحد من البشر، لامحمد ولاغيره، وأهل الملل متفقون على مادل عليه العقل الصريح من أن الأمور الغيبية المفصلة، لايؤخذ خبرها قط إلا عن نبي، كموسى ومحمد ـ عليهما الصلاة والسلام ـ، وهذا من خصائص الأنبياء دون غيرهم، فإذا كان محمد ﷺ قد أخبر من ذلك بما أخبر به موسى وغيره من الأنبياء ـ وقد عُرف أن محمدًا لم يتعلم هذا من بشر ـ كان هذا آية وبرهانا قاطعا على نبوته[3].

وسوف يأتي بعد قليل ـ إن شاء الله تعالى ـ بيان الطرق التي بها يُعلم أنه ﷺ لم يتعلم من بشر. ومما ردّ الله ـ تعالى ـ عليهم به في زعمهم هذا: مافي القرآن من الإحكام والانسجام من جميع الوجوه، وخلوه تماما من التناقض والفساد والاختلاف، سواء في أخباره أو في أحكامه، وذلك مالا يقدر عليه غير الله ـ تعالى ـ، يقول الله ـ تعالى ـ منكرًا على المنافقين: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾[4]، وقد تقدم تفصيل هذا في المبحث السابق.

ومن أعظم مايدل على بطلان هذه الدعوى: ما ذكره الله ـ تعالى ـ من أنه ما كان لمحمد أن يفتري على الله ـ تعالى ـ هذه الفرية العظيمة كما زعموا وهي من أظلم الظلم، كما دل على ذلك قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ

---

(١) سورة الفرقان: ٦.
(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٤/١٩٨.
(٣) انظر الجواب الصحيح لابن تيمية: ٥/٣٨٦ ـ ٣٨٨.
(٤) سورة النساء: ٨٢.

﴿مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾[1] ـ ثم يتركه الله ـ تعالى ـ دون أن ينتقم منه، بل يؤيده ويمكن له، وينتقم من أعدائه، كما تقدم بيانه في دلالة التأييد والعاقبة والنصرة[2].

وقد جاء هذا المعنى في قوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾﴾[3]، فهو يقول لمكذبيه: إني إذا افتريت القرآن كما هو زعمكم، فإني أعرّض نفسي لعذاب الله الأليم، وحينئذ لن تغنوا عني من الله شيئا، ولن تردّوا عذابه عني، فكيف أكذب عليه من أجلكم والحال هذه، فإقرار الله ـ تعالى ـ لي، وعدمُ تعذيبه إياي، بل نُصْرتُه وتأييده لي، كل ذلك شهادة منه بصدقي، وكفى بالله شهيدًا بيني وبينكم.

وفي هذا المعنى قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾﴾[4].
وقوله ـ تعالى ـ: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ ﴿٣٥﴾﴾[5].

أما الطرق التي بها يُعلم قطعا انتفاءُ أن يكون محمد ﷺ تعلم القرآن من أحد من البشر، فكثيرة جدًا، أهمها:

١ ـ أن هذا المعلم المزعوم إن كان من العرب فقد ظهر أنه لم يكن أحد منهم على الدين الذي دعا إليه، وحتى الحنفاء منهم على

---

(١) سورة الأنعام: ٩٣.
(٢) انظر ص: ٤٩٤ ومابعدها.
(٣) سورة الأحقاف: ٨.
(٤) سورة الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧.
(٥) سورة هود: ٣٥.

ندرتهم إنما كانوا يجتنبون عبادة الأوثان، ويتشككون بفطرهم فيما كان عليه قومهم من فساد الاعتقاد، دون أن يهتدوا إلى تفصيل أمر الاعتقاد وبيان العلوم الإلـٰهية، على نحو ما أوحي إلى نبينا ﷺ، ولم يدّع أحد من المشركين أن محمدًا ﷺ قد أخذ القرآن ودينه الجديد من أحد من هؤلاء، لعلمهم التام بقصورهم عن هذا المقام؛ وإنما كان غاية ماتعلقوا به في هذا الباب أن يتهموه بالتعلم على يد غلامين صبيين أعجميّين لآل الحضرمي، كانا يصقلان السيوف، اسمهما: يسار، وخير، وكانا يقرآن التوراة بلسانهما، فمر بهما رسول الله ﷺ وهما يقرآن، فاستغلها المشركون لإثارة الشبهات والشكوك حول النبي ﷺ، والذي ثبت في النقل أنه مر بهما مرة واحدة، لكن لو فُرض أنه جالسهما عدة مرات فمن أين لهما ـ كما يقول الدكتور العُمري ـ: (أن يُعلّما رسول الله ﷺ نظامًا شاملاً ينبثق عن عقيدة مغايرة للنصرانية؟، ثم لماذا انفرد الرسول ﷺ بمعرفة ماعندهما من العلم، وأين مالكهما ابن الحضرمي من ذلك، وقد آمن برسالة محمد ﷺ، وعنه نُقل الخبر الصحيح بشأن غلاميه النصرانيين، وغني عن القول أن لاعلاقة للغلامين الأعجميين ببلاغة القرآن المعجزة)[1].

وقد نقض الله ـ تعالى ـ هذه الشبهة من أصلها، بعد أن حكاها عن المشركين، كما في قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾[2].

٢ ـ أن أهل الكتاب ـ وهم المتهمون بتعليم النبي ﷺ ـ يشهدون بخلاف ذلك. ولو صح أنه تعلم منهم لكانوا يخبرون بذلك ويظهرونه، بعد أن قامت العداوة بينهم وبينه، ولو أظهروا ذلك لنُقل وعرف،

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة للدكتور أكرم ضياء العمري: ١/١٦٦.

(٢) سورة النحل: ١٠٣.

لتوفر الهمم والدواعي على نقل مثل ذلك.

يقول ابن تيمية: (هاجر [النبي] إلى المدينة وبها خلق كثير من اليهود، لعلهم كانوا بقدر نصف أهلها، وكانوا يسألونه عن الغيوب التي لايعلمها إلا نبي فيخبرهم بها، فآمن به طائفة من أهل الكتاب وكفرت أخرى، والطائفتان ليس فيهم من يقول: إن هذا تعلمه منا، أو من إخواننا، ولايقولون له: إنك قرأته في كتبنا، ولو كان شيء من ذلك بينوه وأظهروا كذبه في دعوى النبوة، لاسيما مع مافعله باليهود من القتل والحصار والجلاء والسبي وغير ذلك. وهذا من أعظم ما تتوافر الهمم والدواعي على نقله)[1].

أما شهادة أهل الكتاب لنبينا ﷺ فمعلومة متواترة، حتى إن الله ـ تعالى ـ قال له: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾[2]، فأحال من وقع في شك من نبوته على أهل الكتاب؛ فإن كتابهم شاهد على نبوته، ناطق بصفته، مبشّر به وبكتابه، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَفِى زُبُرِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ ءَايَةً أَن يَعْلَمَهُۥ عُلَمَـٰٓؤُا۟ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٩٧﴾﴾[3]، وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾[4]، وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾﴾[5]، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾[6]، وقد سلط أهل الكتاب يد التحريف على هذه الشهادات

---

(١) الجواب الصحيح: ٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٤، بتصرف.
(٢) سورة يونس: ٩٤.
(٣) سورة الشعراء: ١٩٦، ١٩٧.
(٤) سورة الأعراف: ١٥٧.
(٥) سورة الأنعام: ١١٤.
(٦) سورة القصص: ٥٢، ٥٣.

الناطقة بعموم نبوة محمد ﷺ، وخانوا ما ائتمنهم الله عليه، فلم يكد يبقى منها شيء اليوم، ومع ذلك فقد بقيت إشارات وبشارات تدل بمجموعها على ماحذفوا، وتفضح ما أسروا وكتموا[1].

أما من آمن من أهل الكتاب فقد أقر بذلك، وأظهره وبينه، كما فعل عبدالله بن سلام ـ رضي الله عنه ـ، وقد كان حبرًا من أحبار اليهود، ولما قيل له: أخبرنا ببعض صفة رسول الله ﷺ في التوراة قال: إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝١٥﴾[2] وحرزًا للأميين، أنت عبدي، سميتك المتوكل، لست بفظ ولاغليظ، ولاسخاب بالأسواق، ولاتجزي بالسيئة السيئة، ولكن تجزي بالسيئة الحسنة، وتعفو وتغفر، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء، فأفتح به أعينا عميا، وآذانًا صمًا، وقلوبا غلفا، بأن يقولوا لا إله إلا الله»[3].

وكما جاء في صفة إسلام سلمان الفارسي ـ رضي الله عنه ـ[4].

---

(١) راجع في ذلك ماكتبه علماء الإسلام كالإعلام للقرطبي: ص٢٦٣ ومابعدها، والجواب الصحيح لابن تيمية: ١٩٧/٥ ومابعدها، وإظهار الحق لرحمة الله الهندي: ص١٠٧٨ ومابعدها وغيرها، وقد جمعها عبدالوهاب طويلة في كتاب «ميثاق النبيين» من ص١٦١ إلى آخر الكتاب.

(٢) سورة الأحزاب: ٤٥.

(٣) الصحيح، كتاب البيوع، باب كراهية السخب في السوق، (٧٤٨/٢) عن عبدالله بن عمرو بن العاص مسندًا، وعن عبدالله بن سلام معلقًا، حديث: (٢٠١٨). قال الحافظ بن حجر: (لامانع أن يكون عطاء بن يسار حمله عن كل منهما). فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ٤٠٣/٤.

(٤) انظر المسند: ٤٤١/٥ ـ ٤٤٤، وطبقات ابن سعد: ٧٥/٤، وقد حسن إسنادها الدكتور أكرم ضياء العمري كما في السيرة النبوية الصحيحة: ١٢٢/١، حاشية ١.

وكما جاء في حديث هرقل ملك الروم ـ وقد سبق ذكره ـ حيث قال في آخره:

(وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم)[1].

وكما ذُكر في تفسير قوله ـ تعالى ـ عن اليهود: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾[2]، من أنهم كانوا يتوعدون أهل يثرب بأن الأوان قد آن لمبعث نبي، يؤمن به اليهود، ويقاتلونهم معه، فيقتلونهم شر قتله، فكان ذلك سببا لمبادرة الأنصار إلى الإسلام[3].

٣ ـ أن أهل الكتاب كانوا يسألون النبي ﷺ امتحانا له، ليتيقنوا من نبوته، كما روى البخاري بسنده عن أنس أن عبدالله بن سلام سأل النبي ﷺ عندما قدم إلى المدينة عن ثلاث مسائل لايعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ والولد ينزع إلى أمه تارة وإلى أبيه تارة؟ فأجابه النبي ﷺ[4].

وكما روى مسلم بسنده عن ثوبان أن حبرًا من أحبار اليهود سأل النبي ﷺ: أين الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ من أول الناس إجازة؟ ماتحفتهم حين يدخلون؟ وما غذاؤهم على إثره؟ وما شرابهم عليه؟ وسأله عن الولد: كيف يكون ذكرًا أو أنثى؟ فأجابه النبي ﷺ عن ذلك كله[5].

---

(١) سبق تخريجه في ص: ٤٣٦.

(٢) سورة البقرة: ٨٩.

(٣) انظر جامع البيان لابن جرير الطبري: ١/ ٤١٠، والسيرة النبوية الصحيحة لأكرم العمري: ١/ ١٢٢.

(٤) الصحيح، أحاديث الأنبياء، باب قول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ...﴾، (٣/ ١٢١١)، رقم (٣١٥١).

(٥) انظر الصحيح، كتاب الحيض باب صفة مني الرجل والمرأة، ١/ ٢١١، ٢١٢، برقم (٣١٥).

وكما روى أبو داود الطيالسي بسنده عن ابن عباس أن عصابة من اليهود سألت النبي ﷺ عن الطعام الذي حرّمه إسرائيل على نفسه، وعن ماء الرجل: كيف يكون منه الذكر والأنثى؟، وعن حال النبي في النوم، وعن وليه من الملائكة، فأجابهم، فصدقوه ولم يُسلموا؛ لعداوتهم لجبريل ـ عليه السلام ـ[1].

يقول ابن تيمية بعد أن أورد هذه السؤالات:

(ففي هذه الأحاديث أن علماء اليهود كعبدالله بن سلام وغيره كانوا يسألونه عن مسائل يقولون فيها: لايعلمها إلا نبي، أي ومن تعلمها من الأنبياء، . . . فكانوا يمتحنونه بهذه المسائل ليتبين هل يعلمها؟ وإذا كان يعلم مالا يعلمه إلا نبي كان نبيا.

ومعلوم أن مقصودهم بذلك إنما يتم إذا علموا أنه لم يعلم هذه المسائل من أهل الكتاب ومن تعلم منهم، وإلا فمعلوم أن هذه المسائل كان تعلمها بعض الناس، لكن تعلمها هؤلاء من الأنبياء. . .

فلابد أن يكون هؤلاء السائلون يقطعون بأنه لم يكن يتعلم من أهل الكتاب، وهذا كان بالمدينة، بعد أن أقام بضع عشرة سنة، وانتشر أمره وكذّبه قومه، وحرصوا على إبطال أمره بكل طريق يقدرون عليه، فلو كان بمكة أو بالمدينة أحد من أهل الكتاب يتعلم منه، أو لقي أحدًا من أهل الكتاب في طريقه فتعلم منه، لكان ذلك يقدح في مقصود هؤلاء السائلين، وكذلك كان أهل الكتاب يرسلون إلى قريش قومه ليسألوه عن مسائل يمتحنونه بها، فلو لم يكن انتفاء تعلمه من بشر محل إجماع من أهل الكتاب ومن قومه قريش لما كان لسؤالهم إياه وامتحانهم له فائدة)[2].

---

(١) انظر المسند: ص٣٥٦، ٣٥٧، حديث رقم (٢٧٣١).

(٢) الجواب الصحيح: ٥/٤٠٢، ٤٠٣، بتصرف.

٤ ـ شهادة من آمن به واتبعه على ذلك؛ فإنهم ـ كما يقول شيخ الإسلام ـ: (كانوا خلقا كثيرًا، ومعلوم أن الخلق الكثير الذين اتبعوا شخصا قد جاء بدين لايوافقه عليه أحد، وطلب منهم أن يتبعوه، ويفارقوا دين آبائهم، ويصبروا على عداوة الناس وأذاهم... وهو مع ذلك لم يعط أحدًا منهم مالاً ولا ولاية، بل لم يكن له مال يعطيه، ولاعنده ولاية يوليها، ولا أكره أحدًا ولابقرصة في جلده، وهو مع ذلك يقول عما يخبرهم به من الغيب: الله أخبرني به، لم يخبرني بذلك بشر، فلو كانوا مع ذلك يعلمون أنه تعلم من بشر لكان هذا مما يقوله بعضهم لبعض، ويمتنع في جبلّة بني آدم وفطرهم أن يعلموا أنه كاذب، وأنه تعلمه من بشر، وليس فيهم من يخبر بذلك، مع أنهم كانوا كثيرين لايمكن تواطؤهم على الكذب والكتمان، بل ولاداعي يدعوهم إلى ذلك، ويمتنع ألا يعلموا ذلك وهم بطانته المطلعون على أحواله، وهم يسمعون كلام أعدائه المطلعين على حاله)[1].

٥ ـ أن قومه المعادين له الذين هم من أحرص الناس على القدح في نبوته لو علموا أنه تعلم من بشر لطعنوا عليه بذلك وأظهروه؛ فإنهم مع كمال علمهم بحاله يمتنع ألا يعلموا ذلك لو كان، ومع حرصهم على القدح فيه يمتنع أن لايقدحوا فيه، ويمتنع ألا يظهر ذلك[2].

وقد أمر الله ـ تعالى ـ نبيه الكريم ﷺ أن يحتج عليهم بأنهم يعلمون حاله، لم يغب عليهم منه شيء، ويعلمون اتصالاته ولقاءاته، وسفراته وعلاقاته، فلو كان في شيء من ذلك مايبعث على الريبة في أمر هذا العلم الذي أوحي إليه لما توانوا في إظهاره، ولبادروا إلى الاحتجاج به عليه، ولكن شيئا من ذلك لم يكن البتة، وقد جاء بهذا

---

(١) الجواب الصحيح: ٥/ ٣٩٢ [بتصرف].

(٢) انظر المرجع السابق: ٥/ ٣٢٥.

التوجيه الإلهي في قوله ـ تعالى ـ: ﴿ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[1].

أنكر عليهم أنهم لايعقلون هذا البرهان القاطع على أنه ماتعلم من بشر، وما عانا شيئا من الشعر أو الكهانة، أو دراسة الكتب السابقة، أو مدارسة لها، أو تكلف أن يكون نبي هذه الأمة، أو تكلم بهذا الأمر من قبل، أو كان يراوده أن يُصلح أحوال العالم، أو غير ذلك مما يشبه أمور النبوة وأحوالها، إنما كان كما وصفه الله ـ تعالى ـ بقوله: ﴿ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٣﴾ ﴾[2]، وقوله: ﴿ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾[3]، وقوله: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ ﴾[4]، وقومه يعرفون هذا منه غاية المعرفة، فقد عاش فيهم أربعين سنة قبل النبوة، لم يلحظوا فيها عليه أدنى ما يُتمسك به، ليكون شبهة حول مفاجأة الوحي له، وحتى مرحلة الإعداد لنزول الوحي، التي هيأ الله ـ تعالى ـ نبيّه فيها لاستقباله، لم تتجاوز أشهرًا معدودة، حُبب إليه فيها الخلاء، وصار يُكثر من التحنث في غار حراء، كما أخبرت بذلك عائشة ـ رضي الله عنها[5] ـ.

ولمعرفة قومه بحالته دلالة أخرى غير انتفاء دراسته على بشر، ألا وهي انتفاء قدرته نفسه على الإتيان بالقرآن من تلقاء نفسه، كما قال لهم لما طلبوا تبديل القرآن ما قاله الله ـ تعالى ـ له: ﴿ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ﴾[6]، ثم ذكر برهان ذلك بقول ما قاله الله ـ تعالى ـ:

---

(١) سورة يونس: ١٦.
(٢) سورة يوسف: ٣.
(٣) سورة الشورى: ٥٢.
(٤) سورة الضحى: ٧.
(٥) انظر أول صحيح البخاري: ١/ ٤، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، حديث رقم: (٣).
(٦) سورة يونس: ١٥.

﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ﴾[1].

ولو كان أتى به من تلقاء نفسه لأمكنه إذًا أن يبدّله من تلقاء نفسه، حتى يكون ذلك سببا لإيمان قومه، وهو الحريص أشد الحرص على ذلك.

ولو كان أتى به من تلقاء نفسه؛ فإن ذلك ما كان ليكون إلا بعد تدرج طويل؛ وممارسة مكثفة، يجرب فيها قدراته البيانية والعلمية، حتى يصل إلى ما وصل إليه في القرآن ـ على زعمهم ـ من قمة البيان الإنساني، المضمّن أكمل أنواع العلم والهداية، وقومه يعلمون من حاله تماما أن شيئا من ذلك لم يكن البتة.

٦ ـ أن في القرآن العظيم من الأخبار والمعارف مالم يكن معلوما لأحد من أهل الأرض، لا أهل الكتاب ولاغيرهم، هذا فضلاً عن غفلة النبي ﷺ وقومه عنها، كما قال ـ تعالى ـ: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾[2]، وكما قال ـ تعالى ـ: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[3]، أما مالا يعلمه أهل الكتاب مما في القرآن فمثاله كما يقول شيخ الإسلام: (قصة هود[4] وصالح وشعيب، وبعض التفاصيل

---

(١) سورة يونس: ١٦.

(٢) سورة النساء: ١١٣.

(٣) سورة هود: ٤٩.

(٤) قد روى الطبري بسنده في التفسير (١/ ٤١٠) عن عاصم بن عمر بن قتادة الأنصاري عن أشياخ من الأنصار في سبب نزول قوله ـ تعالى ـ: ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، أنها نزلت في اليهود؛ كانوا يقولون: إن نبيا الآن مبعثه قد أظل زمانه، يقتلكم قتل عاد وإرم... إلخ. فهذا الخبر قد يشعر بأن عند أهل الكتاب طرفًا من خبر قبيلة عاد الذين بعث فيهم هود، لكن يظهر لي أن هذا لايشكل على كلام الشيخ، لأن هذا خرج مخرج المثل، المعبر به عن المبالغة في القتل، وهذا قد يكون مما تلقّفه يهود =

في قصة إبراهيم وموسى وعيسى، مثل تكليم المسيح في المهد، ومثل نزول المائدة؛ فإن هذا لايعرفه أهل الكتاب، ومثل إيمان امرأة فرعون، وغير ذلك، فيمتنع أن يقال: إن هذا تعلمه من أهل الكتاب)[1].

هذا فضلاً عما في القرآن من أحكام وشرائع باهرة، ما كان لأهل الكتاب ولا غيرهم أن يدانوها بعلمهم، فضلاً عن أن يكونوا مصدرها.

هذه بعض الردود القاطعة لشبهة المكذبين، الذين يقولون ما حكاه الله عنهم: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾[2]، وقد تقدم مايرد ذلك في المبحث المتعلق بدلالة أحواله.

= الجزيرة عن العرب، كما أن سماعهم بخبر عاد لايلزم منه العلم باسم نبيّهم وخبره مع قومه، وقد يكون هذا أيضا من تعبير بعض الرواة، حكاه بالمعنى عن أهل الكتاب؛ فإن للقصة روايات كثيرة خالية من ذكر عاد وإرم، أما معرفة عرب الجاهلية بقصة صالح فيشهد لها قول زهير في معلقته:

فتنتج لكم غلمان أشأم كلّهم
كأحمر عادٍ ثم ترضع فتفطم

فإن أحمر عاد المذكور هو قدار بن سالف، عاقر الناقة، وعاد في هذا البيت هي عاد الثانية، وهي قبيلة ثمود الذين بعث فيهم صالح ـعليه السلام ـ. انظر شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لابن الأنباري: ص٢٦٩. وشرح القصائد المشهورات لابن النحاس: ١/ ١١٤.

(١) الجواب الصحيح: ٥/ ٣٨٨.

(٢) سورة النحل: ١٠٣.